الرسالة العلمية

عبد السلام ياسين

الرسالة العلمية

جميع الحقوق محفوظة ©

الكتاب: الرسالة العلمية

تأليف: عبد السلام ياسين

الطبعة الثانية: 1444هـ/2023م

الرقم الدولي: 978-605-73615-9-2

الطباعة والنشر: دار إقدام للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة العلمية

عبد السلام ياسين

تصدير الطبعة الثانية من «الرسالة العلمية»

إن كتابة الرسائل مما عرف به تاريخ العلماء المجددين، وتكون هذه الرسائل في الغالب نصيحة لشخص أو طائفة، يراد منها التصويب والتصحيح والنقد لمسار أو اعتقاد أو سلوك، وقد يكون جوابا عن سؤال... ومن خصائصها الوجازة والقصد.

فهذا الإمام الشافعي (204هـ) يؤلف كتابا عُدَّ دستور علم أصول الفقه سماه «الرسالة»، وهذا ابن أبي زيد القيرواني (388هـ) يصنف رسالة سارت بها الركبان في أمور الديانة، وما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة وتعمله الجوارح، وما يتصل بذلك من الفرائض والسنن والرغائب والآداب، وهذا أبو القاسم القشيري (465هـ) خط رسالة اشتهرت بـ«الرسالة القشيرية»، وجهها إلى السادة الصوفية؛ مصححا بها أوضاعا غير مرضية في سلوك القوم، وهذا بديع الزمان النورسي يصنف رسائل النور خادما بها قضايا الإيمان والقرآن.

ولقد نحا الأستاذ عبد السلام ياسين نحو هؤلاء، فألف رسائل عدة في قضايا متنوعة، منها ما جُعل نصيحة للحكام كصنيعه في رسالتي «الإسلام أو الطوفان» و«مذكرة إلى من يهمه الأمر»، ومنها ما كان توجيها لإخوانه وأخواته في جماعة العدل والإحسان كما في «رسالة تذكير»، ومنها ما خص به فئة معينة كـ«رسالة إلى الطالب والطالبة». وهي رسائل صادرة عن رجل عالم خبير شفوق ناصح أمين، غرضه مما كتب الدلالة على الله تعالى.

إن الرسالة العلمية التي نشرف اليوم بإعادة طبعها ونشرها هي رسالة موجهة أصالة إلى اللجنة العلمية لجماعة العدل والإحسان التي تعنى بالتأصيل الشرعي والبحث في قضايا الفكر الإسلامي والإنساني، ثم تبعا إلى الإخوان والأخوات.

وقد طبعت هذه الرسالة سنة 1421هـ/ 2001م طبعة أولى، واعترتها هنات وهنات، مما دعانا إلى إعادة طبعها بعد تنقيح وتصحيح طبعة ثانية تسر الناظرين بإذن الله تعالى.

رحم الله الأستاذ الإمام عبد السلام ياسين.

كتبه عبد العلي المسئول

السبت 14 من ذي القعدة 1439/ 29 يوليوز 2018.

تقديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد: فإن أولى ما تجنح إلى تحصيله الهمم العالية، وأحق ما وجب صرف الجهود لدركه والأخذ بعنانه، ما كان موصلا للتقرب به إلى الباري سبحانه وطلب الزلفى منه، وذلك العلم النافع الذي يهدي إلى تقوى الله تعالى، ويرسم معالم السلوك إليه سبحانه. ولقد ذكر علماؤنا أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ، وهو ما لا يسع الإنسان جهلُه، إذ يجب على كل مؤمن أن يأخذ من العلم ما به يقيم فرضه وسنته، وبعد يتوسع في فقه الشريعة ما أمكنه وهو الفرض الكفائي، إذا قام به قائم سقط فرضه عن الباقين، لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

(1) من الآية 123 من سورة التوبة.

هذا وإن الكتاب الذي أتشرف اليوم بالتقديم له والتعريف به، والموسوم بـ«الرسالة العلمية»، هو للداعية المجاهد فضيلة الأستاذ عبد السلام ياسين، الرجل الذي خبر العلوم والمعارف، وولجها من أبوابها الواسعة، بدءا بتعلمه القرآن وإحكامه علوم الآلة والعلوم الشرعية والأدبية على أشياخه من أهل القرآن والعلم الذين هم عيار هذا الشأن رحمهم الله تعالى، واطلاعا على الفلسفات المختلفة، والمذاهب المتنوعة، وثقافات عصره، باللسان العربي المبين، وبغيره من أَلْسُن الناس، بغية الفهم والإفهام، وقصد الإبانة والاستدلال؛ مقتحما لُجَّةَ هذه البحار اقتحام الجسور، حتى عُدَّ وقتئذ من كبار المثقفين؛ إلى أن تداركه الرب الرحيم بمنه الكريم، وكان قد قارب الأربعين، بأن قذف في رُوعِه نور الإيمان والحكمة، فتحركت في قلبه حقيقة الفطرة الأصلية، وما كان قد تلقاه في صباه من نور القرآن، ورزق صحبة صالحة انتفع بها ونفع، فكانت الولادة الحقيقية بعد حيرة وتِيهٍ.

وها هو الآن بعد اختياره جوار القرآن والجلوس عند منبر سيد ولد عدنان ﷺ، بعد هذه السنين يتحدث عن العلم وأهله، وعن الثقافة وأصحابها، مبينا «زَغْلَ العلم والطلب»، ومفصحا عما يجب معرفته وما يجب تجاوزه، وما لا يمكن غض الطَّرْف عنه وتركه وَرَاءَ وَرَاءَ من منقول ومعقول، مختصرا بذلك الطريق على ملتمسي العلم، إذ العمر من الإنسان قصير، فوجب صرفه فيما يعم به النفع، ويصح به التقرب إلى الله عز وجل، لا إذهاب الأعمار في درك علوم وهناك ما هو أولى منها، أو صرفُ الهمة في حل مقفَلاَت الألفاظ، وشرح عبارات المختصرات التي أشكل فهمها حتى على أصحابها.

قال الغزالي للذي سأله عما يجب على مريد طريق الحق جل وعلا: «تحصيل علم الشريعة بقدر ما يعمل بأوامر الله ويقف على نواهيه، ولا يجب عليه من علم الشريعة سوى ذلك، وأما غير علم الشريعة فيمكنه أن يتعلم القدر الذي به خلاصه ونجاته»[1]. وقال الأستاذ عبد السلام ياسين: «العلوم التي يتعين على الأمة أن تطلبها وتبذلها وتنشرها فيهم هي التي يحركها روح العلم بالله وبسنة رسوله، فالخير كله في الفقه في الدين، وما يأتي بعد الفقه في الدين فهو وسيلة لخدمة مقاصد الدين»[2]. وجماع القول أن هذا المكتوب الذي بين أيدينا ما هو إلا حلقة ضمن سلسلة من مكتوبات أستاذنا الجليل، المرشدة كلها إلى تمثل المنهاج النبوي في بناء مجتمع العمران الأخوي.

إن من بين ما تهدف إليه الرسالة أساسا:

- توجيه العناية للاهتمام بالقرآن الكريم حفظا وفهما وسلوكا، وبكلام النبوة رواية ودراية وتأسيا، وباللغة العربية كتابة ونطقا.

- إيجاد عالم المسجد: واعظ الحِلَق ومربي الناشئة، الراسخ القدم في علوم الشريعة، العالم بعلوم عصره ومقتضيات واقعه، الحاضر في مجالس الناس ومنتدياتهم، الزاهد في الدنيا، الفقيه في مصالح الخلق، المريد بفقهه وجه الله تعالى.

-استفراغ الوسع للارتفاع عن حضيض الفقه التجزيئي الموروث، إلى يَفَاع الفقه الجامع الشامل.

- التصدي للفكر الإلحادي وإزاحته بالحجة الدامغة.

- السعي نحو تجديد الفكر الإسلامي.

(1) خلاصة التصانيف/ 109.

(2) المنهاج النبوي/ 223.

– تبيين أن العلم ليس بكثرة المسائل والروايات، إنما العلم والحكمة نور يضعه الله في القلب، ويهدي به الله من يشاء من عباده.

– سلوك سبيل العلم الداعي إلى مخالطة الناس والصبر على أذاهم، لا العلم الداعي إلى الانزواء والتفرغ المميت للقلب، العلم المحرض على الجهاد، العلم الراسم معالم السلوك إلى الله تعالى عبر محطات الجهاد.

– التنبيه على أن الإيمان ليس مدركُه الكلام والأدلة المحررة والتقسيمات، إنما الإيمان نور يقذفه الله في قلب العبد، وهو محتاج إلى تجديد كي لا يخلق، وإلى تنمية كي لا ينقص، وكل ذلك موقوف على صحبة من يقيك عثرات الطريق، ومؤمنين يشاركونك في مشروعك الجهادي، حيث يؤلف الله بين الجميع، ويجمعهم عليه، إنه عزيز حكيم.

– التذكير بأن الموعد الله والدار الآخرة، إذ العلم الذي لا يتطلع به القلب إلى النبإ العظيم خداج، والمعرفة التي لا تفتح البصيرة للقاء الله شَوْهاءُ.

لا إله إلا الله محمد رسول الله.صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وإخوانه وحزبه. والحمد لله رب العالمين.

وحرر بفاس عشية الخميس السابع من ذي القعدة 1421

د. عبد العلي المسئول

الرسالة العلمية

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وحزبه.

إخواني أعضاءَ اللجنة العلمية ثم سائرَ الإخوان والأخوات، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قصدي من رسالتي إليكم هذه أن أشارككم في الاهتمام بالبحث عن أقوم السبُل لأداء وظائفنا التعليمية التربوية الدعوية البنائية.

أرقم فقرات رسالتي، سائلا الله عز وجل أن يحمل إليكم كَلِمي من الصواب، فهو الموفق لا إله إلا هو.

1. سرني أن أقرأ عما تنجزونه في مجالس التعليم والموعظة والتدريب على الخَطابة وتجويد القرآن الكريم. بارك الله فيكم.

2. القرآنَ! القرآنَ! القرآنَ! ما أروع أن يَشُدَّ المؤمن والمؤمنة معاقد العزم ليحفظ القرآن ويجمعه ويحافظ عليه. ما أحسن أن يبسُط المرء ساعد الجِد والإرادة إلى كسل نفسه وغفلة حسه يخاطبها ويؤنبها ويدفع بها: «هذه السَّنَةُ سَنَةُ القرآن!». فعل ذلك فلان من الجماعة وفلان، أفراد ونحن نريد من أولي العزم في الحفظ والفهم والعلم والعمل جماعات. وليصبرْ على الهوان والضَّعَة[1] والضياع من لا يحرك همتَهُ قولُ رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتّل كما كنت ترتل في دار الدنيا، فإن منزلتك عند

(1) الخسران.

آخر آية تقرؤها»[1]. رواه أحمد وأبو داود والترمذي بسند حسن. حسبه يومئذ من الخيبة والخسران أن يُحَمْلِقَ في القراء العالمين العاملين وهم إلى صُعُدٍ وهو في مُستقر انحطاطه.

3. سرَّني أن تخصصوا في كل مجلس من مجالسكم وقتا لتدارس الأخطاء الشائعة، ولتقويم الألسنة والتذكير بقواعد النحو والصرف وتعليمها. فاللغة العربية عرضة لاكتساح واجتياح من جَسَارة وسائل الإعلام وأقلام العوامِّ.

4. القرآنَ وبيانَ كلام النبوة فرارا من هوس العالم. فرارا إلى الله عز وجل. ووعظا بذلك، وخطابا بذلك. وتواصيا بذلك. فرارا إلى الله من عالم وسخ، من حضارة الأشياء الملوَّثة الملوِّثة، من إعلام التمييع والانغماس والتغميس في حمأة الغفلات والرذيلة. فار إلى الله يسأل نفسه: «إلى أين يجري بي الليل والنهار؟».

5. فرارا إلى الله وصحبة حانية على الرفيق في الرحلة من دار الانحطاط والغفلة إلى مشارف الذكر والتوبة والاستقامة.

6. فرارا إلى الله ورسوله ونحن وسَط الميدان لا خارجه. ونحن في لُجَّة الفتنة تحملنا عناية الله والاعتصام بحبل الله على ثَبَجِ[2] أمواجها. فرارا إلى الله وعلى ألسنتنا كلمة الجهاد، وفي نيتنا اقتحام عقبات الجهاد، وفي تعليمنا ووعظنا وتجويدنا وترتيلنا وحفظنا

(1) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، رقم1464، واللفظ له، والترمذي فس سننه، كتاب فضائل القرآن، باب 18، رقم 2914، وهو حديث صحيح.

(2) تَجَمُّع.

واعتصامنا كل ما يحرض على الجهاد، ويرسم معالم السلوك إلى الله عبر محطات الجهاد.

7. فرارا إلى الله ورسوله فاعلا مجاهدا مقتحما الغمرات، لا كما يتزهد متزهد، ويهرب هارب، ويتدروش متدرْوش، ويستريح إلى دَعَتِه[1] من يجانب الناس ويجانف، لا يخالط ولا يصبر، لا يتحمل أذىً ولا يقدر.

8. فراراً مجاهداً إلى الله لينجمع مسلم ومسلمة في حضرة مجالس تعليمنا ووعظنا ونصيحتنا وذكرنا على الله. نأخذ بالأيدي رفيقين حتى تثبت أقدام، ويتمكن في سيْره إقدام.

9. صحبةً رفيقةً حانيةً على كل نبتة في حقلنا. عنايةً خاصة بكل استعداد. حتى تتجذر غَرْسَةٌ وتُؤْمَنَ نَكْسَة.

10. قال الله تعالى يعلم رسوله ﷺ ويعلم مَن بوسعه منا أن يتعلم: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[2]. مشرك خائف لا يسمع إلا ما يُشِيعُهُ عالَم الكفر والجحود من أن آيات يتلوها محمد ما هي إلا كلام محمد افتراه وأعانه عليه قوم آخرون. تُجيره النبوءة من خوف فيأمنُ ويكتشف صدق الصادق الأمين. تطمئن نفسه بعيدا على الإرجاف وعن رجرجة النفوس الضعاف والعقول العجاف[3]، ويوقن أنه كلام الله، وأن محمد رسول الله المبلغ عن الله .

(1) راحته وسكونه.

(2) سورة التوبة، الآية 6.

(3) الضعيفة الهزيلة.

11. كذلك نجير من استجار، ونستضيف إلى صدر دعوتنا من لا يستجير، ومن لا يخطر بباله أن هنالك ما يُخاف منه في عالم الإرجاف قليلِ الإسعاف. نستضيف ونتلطف حتى يفطن غافل، ويتيقظ وسنان، ويتحرك عاطل، ويمشي على الجادة مَسُوق جاهل. وحتى يسأل نفسه سائل: «إلى أين أجري؟ وفِيمَ أجري؟».

12. نُعَلِّمُ ونَعِظُ ونُرَبِّي بِحُنُوٍّ صادقٍ تائهـًا في ضلالات الشرك حتى يُسلم ولذنبه يستغفر. تنهض مجالسنا بتوفيق الله بمسلم ومسلمة حتى يطمع في الجنة ومن الطاعات يستكثر. وترفع عناية الله في مجالسنا وصحبتنا مؤمنا ومؤمنة يطمع في قرب الله؛ فيذكرُ الله ويَصْدق ويصبر ويستبشر.

13. في مدرسة القرآن، وفي مجالس الإيمان والذكر، وفي حلق العلم نتعلم ونعلم فنون الخطابة وبلاغ الوعظ وبلاغة الكلمة وتبليغ النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون. ونعلم ونتعلم في مدرسة القرآن فن الكتابة، ونتدرب على الكتابة، ونوصي بقراءة الكتب المفيدة ونغري بالقراءة مغالبين الميل العامِّيَ للقراءات الخفيفة الجرائدية، والمشاهدات المصورة المُلهية على التلفزيون، واللهو العابث المبذر أوقاتَ الناس المضيع أعمارَ الناس اليوم وغدا في إعلاميات إلكترونية طائرة.

نكتب إن شاء الله. ندعو ونكتب. نكتب لندعو. نربي على ذلك ونتربى.

14. نُعَلِّم ونتعلم، نُربي ونتربى، نخطب ونكتب بكلمة الحق، بكلمة القرآن، ببيان النبوة، بالترجمة البليغة المؤدية إلى المقصود القرآني النبوي. تكتب وتخطب بماذا؟ تترجم عن ماذا أيها المتكلم؟

تردد كلام السابقين بغير فقه؟ تعيش عالة على موائدهم؟ تفكر بعقولهم لزمان غير زمانهم.

15. معنى ألا نردد كلام السلف الصالح وأن لا نجتر خطابهم واجتهادهم؟ معنى أن لا نعيش عالة عليهم، نفكر بعقولهم بظروف غير ظروفهم؟

إن منة الله علينا عز وجل ومنة سلفنا الصالح الذين رووا لنا كتاب الله عز وجل بالتواتر بما حفظ الله عليهم وعلينا الكتاب مِنَّةٌ عظمى. وإن دَيْن علماء الحديث في أعناقنا دَيْنٌ عظيم، الذين أرَّخوا ونقدوا الرواة ودونوا وحققوا وصححوا. وذانِك أصلان لا بناء لنا إن لم نَبْنِ عليهما.

16. ثم إن الآلة المنهاجية التي أَعْتَدَهَا[1] لنا علماء السلف الصالح، آلة الاجتهاد، آلة علم أصول الفقه، لهي أساس عقلي بعد الأصلَيْن النقلِيَين لا نكون إلا مبذرين سفهاء إن لم نعتمد على المتين منه، وإن لم نكَمِّلْ ونؤصلْ للمستحدث من القضايا والظروف قياسا والتماسا واستئناسا. وإن في معاهد العلم في عصرنا لاجتهادات مهمةً، نطَّلع ونُعِدُّ المجتهد والمفتي والباحث في ميادين السياسة

(1) هيأها وأعدَّها.

والاقتصاد وما يحدثه الناس من فجور تقتضي أن تحدث لهم عليها أحكام. وفي حصيلة فقه من سبقنا بإيمان وعلمٍ ثروةٌ.

17. أما في علم أصول الدين، علم الكلام، علم الجدال عن الدين -وهو علم إما يكون لنا أو علينا- فمجالُه مجالٌ ترتبك في منعرجات المُخَلَّف منه عقول، فتتشكل من ارتباك الذهنيات السطحية فيه عناصر التشكيك والتعسير والتبديع والتكفير، وقد جعل الله هذا الدين يسرا وتعليما وتيسيرا وتبشيرا.

18. يَكون لنا علم الجدال عن الدين والتبصير بالدين لا علينا إن كان مع الاستدلال العقلي والاستشهاد النقلي نية الهداية والدعوة والرفق بالمسلمين وبالناس أجمعين، لا قصود التعجيز والنبذ.

إفادة وزيادة إن قدَّمنا الدليل العقلي والشاهد النقلي وقلوبنا سَلْمٌ للمسلمين وللناس أجمعين لا حربٌ، ما دون الكفر البَوَاحِ[1] والإلحاد والزندقة كفاحًا بكفاح، وإلاَّ فالعَتِيُّ[2] في الجدال المكفِّر المُبَدِّع، الحَرْبُ على المسلمين وعلى الناس أجمعين ما هو إلا شهابُ ثاقِب على نفسه من حيثُ يرمي بشرره على الناس، عمل خابٍ خائب من حيث يُعين على إخوانه الوسواسَ الخناس.

19. دخل أولو الألباب في رحمة الله لما دخلوا في دين الله لسماع منادي الإيمان ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ

(1) الظاهر البَيِّن.
(2) المجاوز الحدَّ.

فَآمَنَّا﴾[1]. ويتعنت المتعنت يريدك أن تستبدل بإيمان السامع نداءَ الدعوة السمح، «إيمانَ» الخصام والكدَر الزُّؤام[2].

20. يقول الإمام الغزالي رحمه الله عن داءٍ قديم في الأمة استفْحل أُوَارُه[3] ودُوَارُه في عصرنا هذه الكلمة الشفاءَ:

«من أشد الناس غلوا وإسرافا طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا، ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتها التي حررناها، فهو كافر.

«فهؤلاء ضيقوا رحمة الله على عباده أولا، وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين، ثم جهلوا ما تواتر من السنة ثانيا. إذ ظهر لهم في عصر رسول الله ﷺ وعصر الصحابة رضي الله عنهم حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب كانوا مشتغلين بعبادة الوثن، ولم يشتغلوا بتعلم الدليل. ولو اشتغلوا به لم يفهموه»[4].

قال: «ومن ظن أن مدرك الإيمان الكلام والأدلة المحررة والتقسيمات المرتبة فقد أبعد.

«بل الإيمان نور يقذفه الله في قلوب عبيده عطية وهدية من عنده، تارة بتنبيه من الباطن لا يمكن التعبير عنه، وتارة بسبب رؤيا

(1) سورة آل عمران، الآية 193.

(2) المفزع.

(3) اشتدت مرارته.

(4) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة لأبي حامد الغزالي، ص 75، خرج أحاديثه وعلق عليه محمود بيجو ط: 1. 1413/ 1993.

في المنام، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين، وسراية نوره إليه عند صحبته ومجالسته، وتارة بقرينة حال»[1].

قلت: نقف عند الحال والسراية والصحبة، ثم نمضي.

قال رحمه الله: «فقد جاء أعرابي إلى النبي عليه السلام جاحدا به منكرا، فلما وقع بصره على طلعته البهية زادها الله شرفا وكرامة فرآها تتلألأ منها أنوار النبوة قال: والله ما هذا بوجه كذاب! وسأل أن يعرض عليه الإسلام فأسلم. وجاء آخر إليه عليه السلام وقال: أنشدك الله: آلله بعثك نبيا؟ فقال: إي والله! اللهُ بعثني نبياً. فصدقه بيمينه فأسلم»[2].

قال رحمه الله: «فهذا وأمثاله أكثر من أن يحصى. ولم يشتغل أحد منهم بالكلام، و بعلم الأدلة، بل كان يبدو نور الإيمان أولا بمثل هذه القرائن في قلوبهم لمعة بيضاء، ثم لا تزال تزداد إشراقا بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة، وتلاوة القرآن وبصحبة أرباب القلوب»[3].

21. الصحبة إذن ومشاهدة الأحوال السنية وتلاوة القرآن، وغشيان مجالس الإيمان. لا الجدل الكلامي يقدح الشررَ. التبشير والتيسير، لا التعنت والتعسير والتبديع والتكفير. وإن في المسلمين -عامَّتِهم وخاصتِهم- لبدعا يجب أن تُقلَّم، وجهلا بالدين يجب أن

(1) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة لأبي حامد الغزالي، ص 75، خرج أحاديثه وعلق عليه محمود بيجو ط : 1. 1413/ 1993.

(2) نفسه.

(3) نفسه، ص 76.

يُعلَّم. وبين تقليم أغصان الشجرة ليزكوَ أصلها وبين اجتثاث أصلها لفرقُ ما بين إحياءِ نفسٍ وقتلِها.

22. وإن في ذراري المسلمين لإلْحاداً وزندقة ونفاقا ما أحوجنا إلى خطاب يدحَض مقالات الكفر الفاسدة المفسدة.

كان علماء الكلام أول نشأة علم أصول الدين فئاتٍ من جند الإسلام يدفعون عن العَقيدة عواديَ[1] الفلسفة المادية الإغريقية، وغوائل السحر المشرقِيِّ، ووثنية الهند والسند، وضلالات الفرس. كان المعتزلة قبل أن يزيغوا فيالِق جهاد. وصوَّب الأشاعرة قبل أن تنحطَّ المدارك لتتحول أفخاخا، وتتعفن العقول أراضيَ سِبَاخـًا[2] مما وصفه الغزالي رحمه الله وقرأنا منه.

23. حاجتنا إلى حكمة وفصل خطاب، كما آتى الله عز وجل عبادَه الصالحين ويؤتي الحكمة وفصل الخطاب.

عبد الله ونبيه داود عليه السلام أخبر عنه كتاب الله أن الله آتاه الحكمة وفصل الخطاب. لئن كان المتكلمون الأولون رحمهم الله جندا مقاتلا مرابطا على ثغرات عظيمة، فإنهم لَم يفسح لهم من طَوْلِ الحاكم وقوته إلا بقدر ما خدمَ الكلامُ نزوةَ الحاكم.

وهكذا تبنى المأمون العباسي العقيدة الاعتزالية القدرية ليصُبَّ جام نقمته على الصالحين من أئمة الإسلام. وقصة أذاه الإمامَ أحمد بن حنبل رحمه الله صفحةٌ دامية كئيبة في تاريخ الحكام

(1) شرَّ وظلمَ.
(2) أرض ذات ملح لا تكاد تُنبت.

المتسلطين والأذناب المتكلمين. وقد تتجدد التركيبة كما نشاهد في عصرنا، فيتحالَف متكلمون ومتسلطون.

24. آتى الله عز وجل عبده داود عليه السلام الحكمة وفصل الخطاب. ما الحكمة؟ ما فصل الخطاب؟

قال علماء اللغة والمفسرون: الحكمة قضية صادقة. الحكمة علمُ القرآن. الحكمة النبوة. الحكمة فهمُ حقائق القرآن.

قالوا: فصل الخطاب ما ينفصل به الأمر. فصل الخطاب ما يفصل الحق من الباطل.

وبالجمع بين الدلالتين نجد أن الحكمة وفصل الخطاب اجتماع الدعوة والدولة في يد تقية. ولمستقبل اجتهاد علماء المسلمين اجتماع السلطة الأخلاقية الإيمانية المعنوية بالقوة المنفذة الوازِعة، اجتماع القرآن والسلطان، اجتماع القوة والأمانة. اجتماع كما جُمع لخليفة الله داود النبي الحاكم.

25. حاجتنا إلى حكمة وفصل خطاب نبدأهما بتثبيط الإلحاد عن عزائمه، وتدمير بنائه بتقويض دعائمه. لا ينال شُرَطِيٌّ العقيدة المسلح بالشك والتشكيك في إسلام الناس من الناس إلا إعراضاً لمَّا صَدَفَ[1] عن الحكمة والموعظة الحسنة وأعرض، ومَرِضَ بِدَاءِ غروره وأمرض. ولا ينال وازع القرآن منفردا من الناس ما يؤثر الهدي الجامع يتأزَّر[2] بالسلطان فاصل الخطاب.

(1) أعرضَ.
(2) يتقوَّى.

26. على بساط الدعوة المفصولة المحصورة في فضائها، تُختَرَق ولا تخْتَرِقُ، نجد من علماء الوقت وفضلائه الرُّوَّاد من يحاولون نقض عُرا الإلحاد والدفع في وجهه وتثبيط عزائمه. وإن لهم في وقتنا لَعزَماتٍ ووَمَضاتٍ[1].

27. كتب الإمام الغزالي رحمه الله في مجتمع سكونيٍّ من حيث نمَطُ الحياة وسير العلوم والحضارة، عَجَّاجٍ من حيث الفتنُ العقائدية، والثوَرات الطائفية. وكسَب للأمة في زمنه ومكانه وإمكانه للمسلمين خيرا كثيرا. ما يَضُرُّنا أن نشأ الغزالي وأجيال قبلَه وبعده في كنف حكم منقوض العُرا مجثوث الأصل صائل[2] هائل. ما يَضُرُّ إن تبَيَّنَّا ما أملته ضرورة الساعة يومئذ على علماء المسلمين، وإن تحرَّرْنا من التبعية العمياء لهم. رحمهم الله وإيانا.

28. ما يضر إن شاء الله إن لم نقس زماننا بزمانهم، ومكاننا وإمكاننا. بل يكون بحثهم وجُهدهم واجتهادهم لعرض تهافُت الفلاسفة والزنادقة إيناساً لنا واستئناسا، إن راعينا الفارِق بين من كتبوا في كنفِ حكمٍ عزيزٍ في الأرض رغم انتقاض أساسه الشرعية، وبينَ العارض المُمْطر[3] مطرَ السوْء في زماننا والمسلمون في تقهقرٍ في ميادين العزة السياسية، وفقر في ميدان الاقتصاد، وفاقة في ميادين العلوم والتكنولوجيا، وسُرْعة جنونية لحركة العالَم بدلَ السكون في ذلك الوقت، مهما تشابهت الفتنة والهرْج في زماننا وذلك الزمان.

(1) لمعات.

(2) عبارات تدل على السطو على الحكم.

(3) السحاب البادي في الأفق.

29. في زمامنا ينبري العلماء الرواد لتقويض الدعائم التي أسس عليها الإلحاد بُنيانه. وفي مناوشاتِهم إشغال للعدوِّ الجاحد الملحد المتستر بإلحادِه، واللاييكي المستنجد بحلفائه، والمفكر المادي الناهض بأعباء ما حُمِّل من أوزار الطعن في إسلام المسلمين وعقيدتهم وقرآنهم وتاريخهم المؤسِّس.

30. مناوشات دعاة مخلصين يبذلون جُهد المحصور، فينالون من العدو نيلا. وما الإلحاد في ديار المسلمين والزندقة فراشات تتهافت وتتهاوى بنفخ الأنفاس الطاهرة القاصِرة، مهما أملاها الإخلاص وأوقدتْ غيرَتها على الدين حماسة الصِّدَام والاستفزاز. ما «التي هي أحسن» كلمةٌ فُضْلَى حاجَّت وانتفضت في عَراءٍ. لا، حتى تكون الحكمة -وهي حُكْمٌ- شادَّةً عضُدَها. لا، حتى يرفعَ الكلمةَ المخلصةَ الغيورَ رافع السلطان يسير في ركاب القرآن، يحمل الغاشية[1] بين يديه، ويهش بعصاه الغنم الشاردة عنه وإليه.

31. أقول: إن من الاجتهاد والجهاد، بل من شروط غَنائه، وحمل أعبائه، أن يُنَظِّرَ العلماء، ويفكر العلماء، ويجتهد العلماء، ويقتحم العلماءُ، وهَمُّ جمع ما كان فرقتْه الفتن من شمْل الإسلام رائدُهم وقائدُهم ومهمتُهم الأولى. أقول: إن الدعوة على هامش دولة صماء بكماءُ عن الدين إلا إن تسامحت لخطيب واعظ، أو وظَّفَت من بعض خَدَمِها لافِظًا جاحظا، لعهد الإسلام الرسمي حافظا، ولمصالحه مراقبا ملاحظا، ماهي بالتي تنقض في عرائها للإلحاد بناء، أو تثبِّط له عزائم، أو تدمر له دعائم.

(1) القيامة.

32. يكون هذا لنا وجهةَ إعدادٍ، والرقمَ البارز في الأَعداد. ثم نَهْتَبِل باجتهادات علمائنا، لا تحجب عنَّا غيمات العابر من فساد حكام الجبر على رقاب المسلمين، الدائمَ الثابتَ من فقه علماء المسلمين، سلفِهم وخلَفِهم، رحم الله من مضى وبارك في من بقي.

33. للأستاذ عبد الصبور شاهين اجتهاد في محاجة الفلسفة الزندقية. اجتهاد يستحق الاعتبار، كما تستحق الاعتبارَ بادِرةٌ ذكية، نرجوها أولَ الغيث ثم ينهمر، ويرسُمُ لها حدودها الحِيطة الواجبة على علماء المسلمين كلما تعلق الاجتهاد بأصول العقيدة.

34. يعرض الأستاذ الكبير عبد الصبور شاهين لآيات خلق أبينا آدم عليه السلام[1]، ليُنحِّيَ الإسرائيليات التي تزعم أن عُمْرَ الدنيا سبعة آلاف سنة. وذلك ما يتنافى مع مكتشفات التاريخ والأركيولوجيا وعلم الرِّمَمِ. ويقف الأستاذ عند كلمة «بشر»، ويفهم «تسوية» آدَمَ عليه السلام خلْقا ممتدا ملايين السنين، ويفهم «نفخ الروح» غير منفصل ولا منعزلٍ عن تَكوُّن القدرات اللغوية لآدم وبنيه.

35. هل يسمح الاعتبار بآيات الله في الآفاق والأنفُس بمثل هذا التفكير؟ نعم يسمح. هل تسمح اللغة العربية التي أنزل بها القرآن ويسمح اشتقاقها؟ نعم تسمح. ثم هل يحتاط المسلم لدينه فيترك اعتبار العالم المجتهد على باب الجوازم والعزائم لا يزج به في صميم دارها؟ نعم يجب أن يحتاط لتسلم عقيدتُه. لا يَثْلِم العقيدةَ أن نتنَحَّى جانبا أمام قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

(1) في كتابه «أبي آدم : قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة».
(2) سورة آل عمران، الآية 85.

36. وتبقى الدروينية التطورية حائمة بأجنحة الشك والتشكيك في سماء الفِكر الإلحادي. يجب أن ينبريَ لها من علمائنا متخصصون في الكونيات والشرعيات، وجهة وإعدادا لأجيال الحكمة وفصل الخطاب.

37. بَانَ عُوَارُ[1] الفلسفة الأرسطيَّة الأفلاطونية المتعربة على عهد الإمام الغزالي رحمه الله، ولم يسْلَم منطقها وقياساته من العُلُوقِ باجتهاد الإمام. ولَجَّ في المعمعة من بعده شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فلم يسلَمْ الغزاليُّ من لَوْمه أَنْ تبنَّى القياسَ المنطقيَّ اليوناني، ولم يسلم هو من نقد مُحَدِّثينَ من معاصريه أمثال الحافظ الذهبي رحمه الله الذين أخذوا عليه شديدا أن ابتلَّت ثياب فكره من سَوائل الفلسفة الإغريقية.

38. كانت الأساس المعرفية العلومية للفلسفة الإغريقية الكيمياءَ الإغريقيةَ التي تقسم الموجودات إلى عناصر أربعة: الماء والنار والتراب والهواء، والأرتْمِتقا الإقلديسية، والهندسة الخطية، وعلم الفلك الذي كان الإغريق يشُمُّون من ريح فضائه ويَشيمون من إشعاع أضوائه المُنْبعثَيْن من أجواء معرفية مشرقية تمتد جذورها إلى الكلدانيين ومن جاء بعدهم في حضارة الرافدين.

39. لَمْ يَنْقُض المسلمون على عهد الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية الأساس العقدي الأرسطي الأفلاطوني الإقليدي الأرخيمدي فيما يتعلق بمعرفة الكون وموجوداته لتُمَسَّ التخمينات

(1) عيب.

الفلسفية الوثنية في صميم ذاتها وجذور منابتها. وإنما عكس المؤمنان وسائر علماء المسلمين النظّار نفس المنهجية العقلية المنطقية القياسية الإغريقية في اتجاهِ الخَصْمِ المُجادَل بنفس الخلفيات المتاحة يومئذٍ في مجالات الفيزياء السكونية والكيمياء الهوائية المائية الترابية النارية.

40. ذلك كان عصرَ الترجمة والتأسيس، إن أضاف المسلمون الإضافات المهمة إلى معارف الأمم، واستعملوا الآلة المنطقية اليونانية استعمالا جيدا لإفحام المجادَل الملحد والزنديق، فإنهم لم يتجاوزوا الفضاء المشترك ولم يكادوا.

41. أما ليومِ المسلمين وغَدِهِم وغدِ الإنسانية، غدِ عموم هداية الإسلام إن شاء الله، فالمُتَاح المُحَصَّل من آلات نقض الأساس الإلحادي الزنْدَقي، والأفق المرتسم لتطور العلوم البشرية، ومخايل ما يفتحه الله عز وجل على الناس من آياته الكبرى في تخوم النجوم والمجرات والعوالم الكبرى، وفي الصغير الصغير الذري والجزيئي، وفي علوم الإلكترونيات الطائرة بمعارف الإنسان على جناح السرعة المذهلة، وفي علوم الوراثة والهندسة الوراثية، وفي ما يتوالد من علوم ويَتَفَرَّع مجالات تجاوز وعبور، من دار الثبور والغرور إلى دار الإيمان الواقر في الصدور.

42. كل ذلك يفتح للعالِم المسلم، والفقيه المجتهد، والناظر المجادِل عن الدين، والمرشِد الزاجر الناسَ عن أرض الإلحاد والكفر بابا واسعا، بل سماء فسيحة للدلالة على الله عز وجل، ولإقناع من يستمع القول فيتبع أحسنه بأَنَّ الفيزياء السكونية، والكيمياء

المتخلفة، وسائر المعارف العتيقة البطيئة الساكنة ما هي إلا ظلال وظُلَلٌ حجبت زمانا العقل البشري عن النفوذ إلى مكنونات صنع الله، وباهرات خلق الله. آمنت بالله، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

43. لعصر الحاسوب، وسرعة الحاسوب، وحضارة الهندسة الوراثية والاكتشافات الفضائية، والبأس الشديد الذري الصاروخي والسيطرية العسكرية للقوى الكافرة، وعولمة الاقتصاد الآذنة بمزيد من البؤس لبائسي العالم، ومزيد من الثروة والغطرسة للمستكبرين في الأرض بغير الحق، يلزمنا اجتهاد لا يكون المُتكلِّم المُبدِّع المُكفِّر فيه إلا كالغراب يباهي بجناحَيْه الطائرات النفاثة. يلزمنا اكتساب المُحصَّلات العلومية الحديثة. يلزمنا مواكبة ما ينكشف عاما بعد عام، بل يوما بعد يوم من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس.

44. يلزمنا اصطفاء النبهاء النبغاء من أبناء المسلمين وبناتهم، وتربية أبناء المسلمين وبناتهم على الإيمان بالطريقة الفطرية التي يؤمن بها أولو الألباب، يقذف الله عز وجل في قلوب من شاء من عباده هبَّةَ الإيمان ويقظته وجَذوة التوق إلى الله، وجمرة الشوق إلى معرفة الخالق، وبَرْقةَ اليقين بوجود الخالق، ويقينَ الاستكانة إلى الحق الذي بعث به رسلَه إلى الناس الخالقُ.

45. ويُجنَّد النبغاء النبهاء من أبناء المسلمين وبناتهم، المؤمنون القرآنيون، لتلتحم جهودُهم -وقد شَبُّوا على التقوى وحصلوا العلوم وأسهموا في تطويرها- في بناء علمِ الحكمة وفصل الخطاب. علمٍ لا ينفصل فيه الدليل العلومي لإقناع الجاحد عن الجُهد السياسي الاقتصادي الاجتماعي لبناء أمة قوية وتوحيدها. ولا يستغني فيه

الواعظ المجتهد في الدين وفقه شرائعه عن الباحث المنكبِّ في مختبراته، كما لا يستغني الحاكم السائس والاقتصادي المنصرف إلى أرقامه وموازناته عن أهل القرآن.

46. استخدام ما هو محصل من اجتهاد علمائنا الأولين، واستخدام ما يستخلصه اجتهاد الحاضر النبيه التقي النابغ. من اجتهادات علمائنا الجامعين الأولين رحمهم الله ما لا يُتَجاوز بحال لارتباطه بالنفوس البشرية التي لا تتحول طبيعتها مهما تغير المشهد الحضاري والنمط المعاشي. مثال لذلك الاجتهاد ما أودعه الإمام الغزالي رحمه الله في إحيائه من حصيف الرأي وسديد الكلام في شأن النفس البشرية ومعارج إيمان من آمن، ومهاوي من غوى. لا يُتجاوز مثل هذا الاجتهاد لأنه من القرآن يستمد.

47. استخدامٌ وابتكارٌ لما يَجِدُّ من أسئلة في عالمٍ أعيُنُنَا بعجائبه مبهورة. ابتكارٌ لأساليب الإقناع يُجيب عن أسئلة الإنسان الوجودية، بل يبعث هذه الأسئلة ويَحُثُّ عليها، ويدخل بإقدام واقتحام على خطوط القنوات الفضائية، وشبكات التواصل، وطرقه السيارة، وغزوه الثقافي، وحسه التجاري، وحقل ألغامه المدمِّرة أخلاقَ الناس، وعقائد المسلمين، وأوقات المشاهد، وأشغال المشتبِك المرتبِط بمواعِد بث البرامج، والعناوين الإلكترونية للمراسل الحاضر بالصوت والصورة والكلمة عبر مسافات الأرض، قلصتها التكنولوجيا المستقبلية وتُقلِّص.

48. استخدامٌ وابتكارٌ لصَدِّ المُتْرَف في غفَلات عمره، والغريق في بحر تعاسة فقره وخواء حياته، عن الاستغراق في مساره حالاً مرتحلا

إلى ميعاد رقْدة الموت، وضجْعة القبر، لا يسأل نفسه عمَّن هو، وما هو، وإلى أين ومن أين. وما الصد والإقناع العقلي هما الهداية والإيمان، لكنهما عصاً يُهَشُّ بهما على الغنم التائهة.

49. الدنيا فانية، والعمْر يتصرم. قرآن وحكمة ينازعهما الضجيج من هَوَس العالم، ووسوسة الإعلام، وثرثرة الأقوام. في شؤون المعاش ذئب واثب، وذهن ثاقب. وعن المعاد رأس خابٍ خائب. لا يريد أحد أن يموت. لا يحب أحد أن يمرض. والصناديق المُبَرَّدة تُكترى بملايين الدولارات ليُخزَن فيها الجسد ليوم تتقدم فيه العلوم ومبتكرات الطب واستخداماتها بحيث تحيى الموتى بعد فترة تطول فيها الأعمار. طول العمرِ، ومُعَدَّل الأعمار، معيار لتقدم الإنسان أي معيار.

50. عالمٌ أعيننا بعجائب اختراعاته مبهورة، وتحت سطوة ظلمه وظلماته الأنفسُ مقهورة. يطول معدل أعمار الأمم المترفة في النعم المكفولة، وتموت في أكواخ البؤس أجيال المشردين في أعمار الطفولة. وتتقدم علوم البيولوجيا والطب، وترتسم في أفق القرون المقبلة تكنولوجيا الهندسة الوراثية ماردا من شياطين الابتكار والاستخدام. ما سبق في تاريخ البشرية هَوْلٌ مثْل هَوْلِه. ابتكار يتناول الإنسان في أخص خصائصه الحيوية: في تركيب جسمه، ووظائف أعضائه، وزرع غدده وأطرافه، وتطوير قدراته، والتحكم في صحته وأمراضه. ويأبى الله إلا أن يسلط أوبئة جديدة على الناس.

51. ينكب مهندسو الوراثة في مختبراتهم على رسم خارطة المُوَرِّثات، وعلى فكِّ رموزها، وتجريب توْليفاتها على النبات

والحيوان. وغدا تُنتَظَر النتائج المذهلة في الإنسان. نتائج تنقلب بها فلسفة الإنسان في الحياة ونظرته إلى نفسه وإلى حاضره ومستقبله. وتُغيِّر معايير الحكم على ما عُرِف وما لم يُعْرَف.

52. فأين يقع علم الكلام، وجدال نُظَّارنا الأولين رحمهم الله من هذا البلاء الذي يبتلي الله به العباد؟ إمَّعاتٍ مُغمَضي الأعين عما يفتحه الله العلي القدير العليم الحكيم على الناس نبقى، أم نفتح الأعين جيدا على آيات الله في الكون -ومنه عقل الإنسان وما تتفتق[1] عنه حيلته وذكاؤه- لنخاطب الإنسان من جانب القرآنِ الحكمةِ، ومن جانب مشاركةِ عالِمنا البيولوجي، وطبيبنا المبتكر، ومن جانب الخطاب الفاصل، بلغة التي هي أحسن، بلغة المتباري مع الأقوام في كل ميدان، المستمسك بإيمانه بالله وباليوم الآخر، لا تزيده باهرات الاكتشافات العلومية إلا يقينا بقدرة القادر الخلاق العليم سبحانه. يسجد عقله للبارئ المصور الخلاق العليم عابدا ضارعا معتبرا.

53. إن العالم الواعظَ المربِّيَ المعلِّمَ لا يستطيع أن يلفتَ النظرَ بإقناع الفكرِ، ولا يستطيع صدَّ الموبقات الشكية والمغرقات الجَحْدية إن كانت كلمة القرآن في لفظه لا تسندها دراية ما فيه الناس، غائب شأن الناس وعلوم الناس وابتكارات الناس عن لحظه. وليس يكفي أن نبادر كلما اخترع الناس جديدا إلى آيات القرآن نستدل بفهمنا الظرفي أو الحرفي على أن القرآن سبق إلى هذا قبل أربعة عشر قرنا.

(1) ما يصدر عنه.

54. إن الهداية قذفٌ إلهي في القلوب، لا يهدي الإقناعُ العقليُّ بل يهدي الله من يشاء. وما على الواعظ المربي المعلم إلا أن يُذَكِّرَ بالمصير بعد الموت، ويُبصِّر بالبديهة الفطرية البسيطة التي لا تبلى، ولا يرجع حجاجُ القرآن أهلَ الطغيان إلا إليها: مَنْ خلقَكَ وصنَعكَ وصوَّرك وميَّز صورتك عن الصور، وخصَّك بالهم بما بعد الحياة، وشقَّ سمعك وبصرك، ووظف أعصابَك وأجهزة دماغك وأمصارَ كيانك، وعوالمَ فكرك، ودقائقَ شعورك، وكيمياء دمك، وتفاعلات غُددك، ونطق لسانك، وإدراكَ حواسك، وتفكير عقلك، وتركيبَ لغتك؟

55. لا تزال البديهة الفطرية وستبقى هي المعوَّلَ الأولَ على إيقاظ الإنسان من نومة غفلته: الكافر ليؤمن بالخالق، والمسلم ليكسب إيمانا، والمؤمن ليزداد إيمانا، والمؤمن حقا ليزداد يقينا، والموقن ليقبل على الخالق تزلفا وتقربا وعبادة وتوسلا وتضرعا بالذكر والاعتبار والتفكر والتبتل. إلى ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[1] دعا القرآن بإزاء دعوته إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء، وأَنْ عسى أن يكون قد اقترب أجل الرحلة المحتومة.

56. إيقاظ الإنسان من جحود الكفر وجمود الغفلة كان عسيرا في أزمان عكف الناس فيها على أصنام لهم من أوثان الحجر والشجر، ومن معبودات الأموال، وفلسفات الفكر، وعصبيات الزُّمر[2]. ما

(1) سورة الذاريات الآية 21.

(2) الجماعات والفرق.

دعا الرسل عليهم السلام بغير الحجة الفطرية. وما يجدي أن يدعو علماء الإسلام المربون المعلمون الربانيون بمنطق أقوى وأَدْخَلَ في النفس البشرية. وأيّ منطق يكون أدخلَ من حكمة القرآن؟ وحكمةُ القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾[1].

57. ولئن أصبح للناس أصنام يعكفون عليها من مكتسبات احتكارهم لخيرات الأرض، وطغيانهم بالقوة، وبطرهم[2] بالنعمة، وارتكاس[3] المستضعفين في الأرض في حمأة البؤس، وانتشار المخترعين في بسائط المكشوف، واستغراقهم في البحث عن أعماق المستور، فإن نداء الفطرة وإيقاظ البديهة وحكمة القرآن باقية في مكان العزة، على العالِم الواعظ الرباني أن يزيل من طريقها العوائق بتحرير العقل، من أوهامه، وبيان تهافت المُسلَّمات الإلحادية.

58. على العالِم الواعظ الرباني أن يعالج بالإقناع، وعلى الله الهداية. وعلى المسلمين أن يتوحدوا لصد الطغيان الجاهلي، وتحرير الإنسان من تفرعنه ومن الله القوة. سلطانٌ وقرآنٌ. اجتهاد وجهاد.

59. أبعث إليكم أيها الأحبة بنسخة من كتاب عنوانه «الله والعلم»، من تأليف الفيلسوف النصراني تلميذ بركسون المسمى جان جطون. يفتح الحوار الذي أجراه جطون مع صحفيين متخصصين في الإعلام العلومي آفاقا تتجاوز بكم المعهودَ المأنوسَ من مُسلَّمات الفيزياء

(1) سورة الأعراف الآية 185.
(2) استخفافهم وكفرهم.
(3) وقوع.

السكونية التي أسست عليها الفلسفة اليونانية تخميناتها، والكلامُ والجدلُ على عهد المعتزلة والنظار حجاجَهم وجدالَهم عن الدين، والإلحاد المادي تنطعَه، والدروينية التطورية هَبَلَها، والجدلية المادية ثورتَها، وعلومَ أمسِ واليومِ مُرْتَكزاتها.

60. آفاق واسعة لبث الحيرة والشك والرعب في قلب الفلسفات الإلحادية، ولإتيان بنيانها من القواعد، قواعد المسلمات العلمية التي سادت ولا تزال تسود، وهي غدا ومنذ اليوم مهددة من أن تنسف رياحُ العلوم الحديثةُ الحديثةُ المُطَنَّبَ من خيامها.

61. يتيح كتاب جطون إطلالة ومدخلا إلى عالم فيزياء الجزئيات. مدخلا ثم يتخصص منكم متخصصون لدراسة الموضوع، متخذين لذلك العُدَّةَ من إتقان لغة العصر، خاصة اللغة السائدة اليوم، أعني اللغة الإنجليزية. وغدا تسود أجود اللغات وأذكاها. وبعد غد في أفق الخلافة على منهاج النبوة تسود لغة القرآن إن شاء الله في ميادين العلوم بتفوق الحكمة وفصل الخطاب، بسيادة العدل والشورى والحق. تسود إن شاء الله لغتنا العزيزة المصطفاة، حاملة كلمة الله ورسالته الخاتمة إلى الإنسان. ما عجزت لغتنا وكيف تعجز، لكن نحن تخلفنا وكسُلنا. جبر الله كسرنا.

62. يفتح الكتاب نافذة على عالَم الفيزياء الحديثة التي كشفت عن أسرار المادة والطاقة والزمن وأجرام الفضاء وجزيئات الذرة. بدأ أبو النظرية النسبية أينشتاين في أوائل هذا القرن فزحزح بمعادلاته الرياضية يقين الفيزيائيين من قبله بأن هناك مادة وزمنا. وزعم أن الزمن إنما هو بعد من أبعاد المادة.

63. وخرج بلانك الفيزيائي الألماني في مطلع هذا القرن بأبحاثه ينصِب لمجال الاطلاع البشري على أسرار العالم الذرة والفوطونات والإلكترونات والنوترونات حدودا. وتُكُلِّمَ -ولا يزال يُتكلم- عن «جدار بلانك» وعن «زمن بلانك» ما دون الجدار البلانكي إمكانية وجود ذرات وجزيئات تلاحظ وتحسب مواقعها وتقدر، وما وراء الجدار عجز وظلمة وعدم، ما وراء الجدار كُنْهٌ لا يخترقه العقل، ولا تنفذ إليه آلات البحث.

64. وأثبتت فيزياء الكوانطا التي تربعت في أواخر العقد الثالث من هذا القرن من تاريخ النصارى على منصة الأبحاث المعمقة أن لا موقع في الحقيقة لجسميات مادية في عالم الذرة، وإنما هي موجودات تقابل الباحث تارة على شكل مادة، وتارة على وهم تموجات. تحضر تحت مجهر الملاحظ، وتتجاوب وتتفاعل، كأن لها إرادة مشتقة من نوايا الباحث، محاورةً لها، لاحقة بها.

65. يتخصص منكم أيها الأحبة متخصصون في هذه المجالات التي يخبر عنها أهلها أن حقائقها تصيب العقل بالذهول، والإدراك بالدوار، حين يظهر له رياضيا وفيزيائيا وعلميا أن لا مادةَ هنالك ولا زمن، بل ولا طاقة، وإنما عي حقول متداخلة متفاعلة من التجاذبات والتنافرات.

66. وهكذا تتهاوى[1] النظريات المادية واليقينيات التي كانت دِعامة الفلسفة الإلحادية، نظريات أمس الغابِرِ التي جزمت أن العالم

(1) تتساقط.

هواء ونار وتراب وماء، ويقينيات أينشتاين أب القنبلة الذرية الكارثة على الإنسانية، أن الذرة حبيبات صَلبة تدور في أفلاكها جزيئات محدودة العدد، معروفة السَّريان والمسْرى. وتتهاوى عقيدة أن عالم الأجرام السماوية الذي يقدرون امتداده ومسافته اليوم بعشرين بل أربعين مليار سنة ضوئية هو في الحقيقة عالم لا يزال في امتداد وتفاعل وانفجار. حسبوا اليوم وقدروا ميلاده منذ عشرين مليار سنة، منذ الانفجار الأول «البيج بانج».

67. دوار يصيب العقل البشري ويُذهل الباحث المراقب أنى وجه نظره، لا نهائية عالم الأجرام الكبرى، ولا وجودية عالم الجزيئات الصغرى. ولا يهتدي الكافرون المعاندون مع ذلك، ولا يرضون بترجمة دوارهم وذهولهم إلى لغة كلَّمنا بها الله عز وجل في القرآن الكريم سندِنا المطلقِ، كلمة الله الخالق البارئ العليم الخبير، يرينا سبحانه آياته في الآفاق وفي أنفسنا عسى يتبين لنا الحق. عسى أن تنتطح[1] قدرات العقل البشري بجدار العجز والمحدودية والضعف لنرجع إليه مؤمنين بأنه الرب القادر العليم الحكيم.

68. لا يبقى في أفق مستقبل الكشوفات العجيبة التي فتح بابَها علماءُ الذرة والجزيئات وفيزياء الفلك والكونطا فُضْلة للعقل، ولا مجال للتعقل ولا مستمسك للوهم والخيال.

69. فبنقض الدعائم اليقينية التي كان بنى عليه الإلحاد تخميناته تنْتكِثُ قبضته، وينحل عقده، ويترنح إحساسه بالزمن والمكان

(1) تصطدم.

والوجود. وذلك حين يتقدم علم الحكمة القرآنية وهداية الله تتمثل في دعوة القائمين بالقسط شهداء لله بعرضِ الإسلام، وعقيدةِ التوحيد، وخبر مصير الإنسان بعد الموت. عسى ينزجر جامح، ويرجع إلى السِّكَّة زائغٌ، ويشهد ملحد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، جاء بالهدى ودين الحق ليظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون.

70. إن دورة ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1] تلوحُ بشائرُ حركتها التاريخية من خلال حيرة فيزياء الباحث، كما تلوح من خلال سَأَمِ المترفين في أمتعة استهلاكهم، وآلات «ربوط» مساكنهم، ومن خلال الظلم الفظيع والبؤس الشنيع الذي تعانيه إنسانية المستضعفين في الأرض ومن خلال إفساد الحضارة المادية الدوابية لأخلاق الإنسان، وتلويثها للبيئة وتبذيرها لخيرات الأرض.

71. يتهدد الإنسانَ إفسادُ المفسدين في الأرض، فَمِنْ نهضة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[2]، ومن قومة «ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»، أن يتخصص منكم علماء وعاظ مذكرون مربون معلمون ليؤسسوا من الخطاب الإقناعي ما يسد الثغرات، وما يصد العدوان الثقافي الدوابي، وما يشد عضُدَ الدعوة في عَرْضِها لدعوة الإسلام.

72. نهضة «وأعدوا»، وقومة الخلافة على منهاج النبوة لابد أن يهيئهما ويصحبهما ويُمهِّد الطريق لسيادتهما -وهي سيادة القرآن

(1) سورة آل عمران الآية 140.

(2) سورة الأنفال، الآية 61.

وسيادة شريعة القرآن- اجتهاد مجدَّد مؤسَّس في علم أصول الدين واجتهاد مجدِّد بانٍ على أساس في علم أصول الفقه وفروعه. عن جدارة نتقدم إلى موعود الله بالخلافة في الأرض إن أعددنا واجتهدنا وتعلمنا وعلمنا. وإلا فهي الأماني يتسلى بها ويترفه حالمون، والهذيان الجميل يُدهده به العاجزون مَهْدَ استكانتهم البليدة إلى واقع يحكمه ويتحكم فيه غيرهم، مطمئنين إلى تراث الأجداد يحشدون من فضله الفاضل رُزَمًا من القول، إن اشتقت من القرآن فهي غير السند المطلق: كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ: منه إلينا مباشرة، نستصبح بِهُدَى السلف الصالح، لكن نأخذ و نتأمل كل ما دون قال الله وصح عن رسول الله. صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

73. لا وجود تحت العين الفاحصة للفيزياء المتقدمة، فيزياء الغد المدققة تدقيقا متناهيا لشيء اسمه المادة الصلبة الموضوعية، كما يستند إلى المُدْرَكات المادية الصلبة علوم اليونان وفلسفة اليونان وعلم الكلام الذي حاج الفلسفات الهاجمة على الإسلام وعقائده وشريعته على عهد سلفنا الصالح رحمهم الله.

74. ولا مسافة بعد اليوم بين ساكني هذا الكوكب الأرضي اليومَ، ولا بينهم وبين الجوالين في الفضاء غداً والقاطنين فيه. الأرض قرية صغيرة نفت منها المسافاتِ صواريخُ الحرب والطيارات النافثة تصل جسوم الناس بمساكن الناس، ونفت المسافاتِ بين الناس والناس آلاتُ التواصل الإعلامية المتطورة بسرعة. ما كان لمن قبلنا رحمهم الله أن يتخيلوا الآلات ولا السرعة.

75. لا وجودَ موضوعيا للمادة كالهواء والتراب والنار والماء، أو كحبيبات أنشتاين، وإنما علاقات وتفاعلات وتجاذبات وتدافعات. بل ولا وجود للزمان أيضا. ولا مسافات بين الناس. فما يقول للناس الموجود المعدوم في فيزياء الغد، الصلب العنيد في حواسنا وحياتنا. وما يقول الناس للناس عبر آلات التواصل الطائر والإعلامي؟

76. تُيَسِّر وسائل النقل والتواصل تبادل البضائع والزيارات بين الناس، وتبادل الصورة والمعلومات والأخبار ييسرها التلفزيون. وييسر الحاسوب ومضافاته خزن الصورة والكلمة، ونقلهما، ومعالجتهما. وينتقل السائح من بلد إلى بلد ليرى بأم عينه ما تحرضه على الإتيان إليه إشهارات وإخبارات. وكل هذا الاختصار للمسافات، وكل هذه السرعة في التبادلات لا تنبئ الإنسان عن شيء زائد عن هم الإنسان بالمعاش ورفاهية المعاش ولهو المعاش: يشاهد البائس المحروم على شاشة التلفزيون ما ينعم به المترفون فيزداد حَنَقُه على أَثَرة الإنسان وجشَع الإنسان، ويتفرج السائح الجواد بدولاراته القَيِّمة في لذاته في نُزُلات السياحة على بؤس البائسين، فلا تتحرك فيه عاطفة أخوة بين بني الإنسان. قامت مواصلات النقل وتواصلات اللحظة وإشاعة الخبر والصورة بتطبيع مشاهد الظلم والبؤس والفاقة، تعيش في سلام من توبيخ الضمير جنبا إلى جنب مع مظاهر الترف والسَّرَف.

77. طغى الفوريُّ اللحظي المنفعي الاقتصادي الأَثِر على كل هَمٍّ سوى هَمِّ إشباع فاقةٍ وعَوَزٍ، أو هم إرضاء رغبات ونزوات.

والقلة القليلة من الناس من يُدخل في حساب يومه أو ليله الاهتمام بما تقوله اكتشافات الفيزياء الحديثة عن المادة والزمن والجزيئات وأسرار الكون. لَغَطُ عالم التنافس والتكاثر والتظالم، وهوس عالم الحس، وفرقعة العنف، ووهج الصورة واللون والكلمة الإشهارية المهيجة، غطت على كل اهتمام من قبيل ما يؤرق الفيلسوف في تخميناته، والباحث في مختبره عن عالم الذرة، والسياسيَّ المثقف أو المحترف المُنازل المُناور لخصومه وزبنائه.

78. بَيْدَ أن المثقف السياسي، والملحد المتفلسف، والمبدع الفنان العاهر، تَرشَح من مسامِّ ثقافتهم المادية، ومن ألفاظ كَلِمِهم، وعدوان عشرتهم عصارة فكر غافل عن الله، كما تَنْزِلُ من مهارة صناعتهم في توجيه الأفكار، ومن سلطتهم السياسية، ومن بيداغوجية تعليمهم على منابر الإعلام والتعليم أمطار طوفان الهوس والفلس، وعلى سائر أصناف الناس الرضا والخرس.

79. أصناف الناس من فاعل نَشِطٍ مرتبط عقيدةً وانتماء ثقافيا إلى قرية المواصلات السريعة والتواصلات الفورية، أو خَرِسٍ تنصَبُّ عليه الرشحات والقطرات والطوفان الإعلامي في بيت رفاهيته أو كوخ بُؤسه، لا يسمعون ما يخبر به الواعظ من النبإ العظيم، ولا وقت لديهم ليسمعوا، ولا متسع عندهم ولا فائدة في الإنصات لحِجاجٍ بين عالم بالدين يجادله ملحد في الدين. إن ظهرت لحظة لقطات حوار على شاشة الزمن الطائر فهي ومضة في الشعور وتنطفئ.

80. إن عمل العالم المتطلع إلى إبلاغ كلمة الله يأتي صرحَ الباطل من أساس بنيانه إن عزَل في فضاء الثقافة المتأجج، وفي نقاش الأفكار التي يتقلب فيه المبدع العاهر، والمثقف المتفلسف، والسياسي المحترف جرثومة الداء، وأفحم الأصوات بالحجة العلمية المستقبلية المدققة، وأخرسها ليسمع الناس -أصناف الناس- كلمة الله وبلاغ القرآن وسنة النبي الرسول ﷺ.

81. على أرضية نقاش الأفكار، وفي الفضاء الثقافي المحموم تحوم وتحط نسور الدعاة على أبواب جهنم. وفي عالم التنافس الاقتصادي وغلبة المسيطرين المستكبرين في الأرض، يتصارع عمالقة المال والأعمال والربا مجتثِّ الأوصال. أولئك سندهم المُطْلق العقلي، والمُسلَّمُ في الثقافة المادية السائدة. وهؤلاء مطلقهم الربح، وجواز مرورهم إلى منهوب اللذات، والمنافع قانونُ الرأسمالية الحرة العالمية، وكلمة سرهم فيما بينهم التكتلات التجارية الصناعية، تتكالَب لتأكل مخ عظام البائس المحروم.

82. على عالِم المسلمين الواعظ المُربِّي المعلم، المجادل عن الدين، القائم بالقسط بين الناس دعوة ودولة، أن يدحض بمطلق الوحي حجةَ مطلق العقل الملحد، وبدليل العلوم الحديثة المدققة دليل مسلمات أمس الدَّابر، وبمطلب العدل مُرْديَ اليأس، وبنظيف الصورة والكلمة والأنس عهارةَ الإبداع الدوابي وجاهليةَ تبرج النسوان، وباستقامة الأقوياء الأمناء احترافَ السياسي المنتهز، وبحق البديهة الفطرية يوقظها أساطيرَ الجحود ولهوَ الغفلة والكنود.

83. ذلك ليتأتى له النفوذ إلى أسماع الناس-كل أصناف الناس- ليقول كلمته، وليبْذر في النفوس بذرته. كلمته للناس الإسلام والقرآن. كلمتنا القرآن والإسلام في الملإ الفرعوني السياسي، والملإ القاروني المالي، والملإ التجاري الرأسمالي، والملإ (المَفْيُوزي) المخدراتي، والملإ الزنديقي الإلحادي، والملإ العهري المبدع في الفجور، والملإ المؤتمرين في مراكز القرار الدولي والمحلي.

84. لكي يقول العالِم المبلِّغ عن رسول الله ﷺ كلمته، ولكي يبذُر بذرته في النفوس، ويغرس غرسته في الأجيال، يلزمه أن يصمد في وجه التيارات المعاكسة، وأن يغشى مجالس الناس، ومحافل السياسية، وأسواق الإعلام، ومناشط التعليم، ومرافق الحياة الاجتماعية، ومناطق نفوذ الفيلسوف الملحد، ومقاصف اللاهي الغافل.

85. يغشى، ويصمد، ويصبر، ويخالط الناس ويصبر على أذاهم. لا كالذي يجعل شعار ثورته الثائرة الهائجة على العالمين: الموت لمن ليس معي ! والوبال على من خالفني ! والسيف على عنق من قال برأسه هكذا. سمت الأنبياء والرسل عليهم السلام الصبر على حمل الرسالة، والعالِم المبلغ المربي وارث لآخرته حارث، فَرفْقه من تمام علمه، وعلمه إن خانه الحلم إنما هو وقودٌ لهياجٍ مكفر منفر.

86. جهاد المشركين والكافرين في زمن الفتنة له فقهه. وفقه جهاد المنافقين في أزماننا يريد من الحلم عصاً يتوكأ عليها الخطيب والواعظ المربي، والمعلم الملامس المباشر آلام الناس المستفزة، وبؤس الناس العَصيّ، ومكانهم في المجتمع الداني والقصيّ.

87. بين مقعد الفقيه البصير بالنصوص، الحسير عن درك ما بين يديه من تضاريس الواقع ومهاويه، وبين العالِم المربي الداعي إلى كلمة القرآن، الباذر الغارس، فرق ما بين مانح الأمل وزارع اليأس. هذا في بَوْحه بانقطاع أمله، ونَوْحه على بُعْد أجله. ضجر من الواقع فلا صبر له، واستعجل الرحيل من دار البلاء. وذاك يبسم في وجه قدر الله وعجيب صنعه، له مع قدر الله أجل أن يدخل الإسلام كل بيت حجر ومدر، وأن يهلك أعداء الدين، وأن يقاتل الحجر والشجر اليهود، يؤازر الشجر والحجر جهاد المؤمنين.

88. حلم ومخالطة وبسمة أمل ويقين. وفقه أولويات -كما يفصل فقه الأولويات فقيهها الدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله- يميز به العالم الخطيب المربي المجادل عن الدين بين المقدس والمدنس، كيف ركب المدنسون متن نفاقهم، وانصرفوا إلى المقدس بمعاول الإرجاف والكذب على الإسلام: الدعاة الصادقون عندهم مُهرِّجون مرتزقون يدخلون السياسة في الدين. والدين عندهم شأن خاص، والوحي عندهم والنبوءة حالة نفسية تتغذى بآلام رجل مهووس بآلام وأحلام. والله عندهم أسطورة.

89. من فقه الأولويات في الدعوة والبناء أن نبدأ بإزاحة فكر الإلحاد من أرض تَرشَح بإفرازات عفنة، وسماء تمطر مطر السَّوْء عَلَى عقول الناس من على كرسي الأستاذ الملحد في الجامعة، ومَجْثَم الصحافي والإذاعي والإعلامي السائر في الركاب، الحائد عن الصواب.

90. أَزِحْ فكرَه واجعله سخرية في المحفل-بالحجة العلمية المدققة- وأنت قد أضفت إلى علمك بالدين علمك بآفاق علوم الفيزياء الحديثة والكيمياء والفلك والاختراع وزرع الأعضاء وهندسة الوراثة. حيره بالحجة، وأربك كلمتَه بالكلمة، وحوِّل أنظارَ المعجبين بحذلقته صوبَ كلمة الحق وعقيدة الحق.افعل ذلك به في المحفل والصحيفة والعرض التلفزيوني ومدرج الجامعة حتى يَبْدوَ مُسِفًّا عاطلا بليدا متخلفا.

91. اهدمْ قواعدَ يقينه بالحجة العلمية، واكسفْ كلمته بأمانة التبليغ، وشرف الموقف، وعزة الإيمان، وأَنَفة الحُرِّ أن يتبع خانعا ثقافة أمسِ الملحدةَ الجاهلةَ بصنع الله في الكون والأجرام والفضاءات والدقيقات. افعل به ذلك حتى تصافح كلمةُ الحق أسماعَ الناس -كلَّ أصناف الناس- وحتى يأذنوا ويصغوا، وحتى يكون بينك وبين المثقف الأمي الجاهل بدينه وبعالم الغد وما يؤسس عالم الغد حوار على بينة، إما يندحر في جحوده ويندثر، وإما يفيء إلى كلمة سواء، ويجلس على أرضية إسلامية، يقول لنا فهمه لإسلامه ومشروعه للناس.

92. كلمتنا للإنسان في مشتبك الأصوات، والبث الفضائي، والمحفل الثقافي، وخطبة الجمعة، ومجلس الذكر والنصيحة، أن الله عز وجل الذي أمرنا بالنظر في خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من دابة، وما أظهر فيهما ويظهر من آيات معجزات مُحيِّرات، إنما يريد منا أن نستقصي جهد العقل ومدى قدرة آلات البحث في جسم الإنسان، وآفاق الكون، ومواقع النجوم، ومجاهل

الذرة والجزيئات لكي يرتد إلينا البصر الحسي والبصر الإليكتروني والاستدلال الرياضي المدقق خاسئا حسيرا، يقول بلفظ القرآن : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

93. حتى إذا خَسِئ البصر وانحسر، واندثر وهمه في علوم أمس الدابر[2] وانقهر، نبهناه إلى هذه الحقيقة البسيطة: إن نسبتنا كلَّ كشف علومي إلى باحث عبقري فلكي رياضي مخترع، نحسب أنه هو الذي أوجد ما كان منذ بدء الخليقة موجودا، إنما هو زور من القول وبهتان. تخَرَّص الباحث العبقري، وفرض فرضية علومية، وانكبَّ عُمْرَه في مختبرات صبره، وليل أرقه، وكَدِّ تدقيقه بصرامة المنهجية العلومية التي لا تؤمن إلا بالنتائج الثابتة. حتى إذا تأكد وجرب وراقب وأعاد الكَرَّة، وحتى إذا أعاد الناس التجربة فصحَّت النتائج، واعترفوا، قلنا: فلان اكتشف! فلان اخترع! المعهد الفلاني وفريق البحث في معهد كذا وجامعة كذا سبق! كأن فلانا أوجد من عدم!

94. يا لَلْمغالطة! يا لَلزور! يا لَلْبهتان! بل الله خلق.

95. ثم ننبه أصناف الناس -مَن ارْعَوى من علية المثقفين والأميين في دينهم ومن لم يَرْعَوِ، ومن أشاح بوجهه عن هُرائهم[3] ومن لم يُشِح- إلى أن بصرك المنحسر من آفاق النجوم ودوار السنوات الضوئية بالمليارات، ومن عجائب عوالم الذرة وجزيئات، ومن خبايا جسمك وتركيبك وصورتك وعقلك، إنما يُراد بوجوده

(1) من الآية 192 من سورة آل عمران.
(2) الذاهب الذي لا يرجع.
(3) كلامهم الكثير الفاسد.

وانحساره وانكساره أن تبصر في نفسك: من أين؟ وإلى أين؟ وما شأنك تمثل دورك طوعا وكَرها على مسرح الحياة؟ وما الحياة؟ وماذا بعد الحياة؟

96. تحسب أنك سيد نفسك! غرقت في أسطورات نفسك وهواجس أوهامك! ننبه ونذكر ونبصر. ثم ننتظر لحظة انفجار، لحظةً يقذف الله تعالى فيها برقة الإيمان. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[1].

97. من نظام الكون وعجائب الخلق نعود بالمتمرس في دنيا الأفكار إلى عبوديته في جسمه وعيشه، وهواء نفَسه، ولقمة غذائه وعِشائه، ومرض صباه وشيخوخته. علَّ شيطان غروره الأميِّ ينزجر وينحسر. أما عامة الناس ممن لم يتجرعوا سُمَّ المنهجية العقلانية الشكاكة في البديهيات الفطرية، فإن رشح عليهم من مَسامِّ الزندقة البيداغوجية رشحة على مقاعد المدرسة، ومدرجات الجامعة، وآداب الإبداع، وإبداع الفن السمعي البصري، فاندحار المعلم في مجالس الحوار تحرير لهم، وانفضاحه على ملإ من الناس في صفحات الكتب وشاشات البث تخليص لعقولهم من أوهاق[2] البلادة.

98. نزيل بالإقناع الجدلي العقلي ما ثَمَّ من ترسبات لنفتح أمام الفطرة طريقا إلى النور. نخاطب وجدان عامة الناس بعد أن نبين تهافت خاصة أصحاب العقلانية الأمية. ونذكر بمناسبة حَدَث وحادثة في مأتم وحزن، أو ضربة قدر، ومناسبة ألم وضجر، ملتمسين

(1) سورة الشورى الآية 45.

(2) الوهق: حبل في أحد طرفيه عقدة يطرح في عنق الدابة أو الإنسان حتى يؤخذ.

اللحظة المناسبة، والحكمة في الخطاب، داعين إلى الله بحُنُو ورفقٍ ورحمة، لا بالتبكيت[1] والغلظة. فإن في طبائع الناس النفورَ من الشُّرَطي المُزمجر المكفهر، وإن من لحظات العمر ساعات وفرصا تنفتح فيها أسماع الفطرة.

99. بسلطان ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] نخاطب وجدان العامة في الخطبة العامة، ونناجي ألم المصاب في لحظات استفاقة واستعداد، وندخل على نادي المتعنِّتين في المحفل والمكتوب لنَلْفِتَ النظر من مشهد الشرائط الملونة، ومن مألوف الدَّعة والعافية، ومن قرناء الغفلة وزبناء الغفوة، ومن عشرة الشرب والندماء، ومن سرب التكتل الحزبي المنهمك في نَصْب الأشراك وغزل الأشواك.

100. جاءكم الموت، وحلت الرَّزية، واستوحشَتْ من الحياة الجميلة -كانت- الديار. انحل نظام كان يسعى بين الناس ويملأ الدنيا ضجيجا. النظام فيك سينحل يوما. فما قيمة حياتك، وإلى أين يسوقك حاملو نعشك؟ كنت تحسب أنك أقوى من الموت تخطاك المرض مرة ومرات، وأنستك العافية البلِيَّات وها أنت وجها لوجه أمام مصيبة لن تخطئك يوما تجري إليه. أنت مريض بمرض يسمى الحياة، الأيام ساعية بك إلى حتفك. الوقت، الساعة، السنة، العمْر.

101. لا يلعبْ بعقلك المهرجان الفضائي الدائم، ولا يغُرَّنك قهقهة الشيطان والشيطانة في مسرح اللهو الدائم، ولا يخدعنَّك عن

(1) التقريع والتوبيخ.
(2) سورة النحل الآية 125.

نفسك الرفيق الأليف. ها أنت أمام الجِدِّ الجادِّ. أفأنت جملة تفاهة مدغمة في متن الحياة، أم أنت مرح وخلاعة وفرح حتى تُكَبِّ على وجهك لا تدري من أنت، ولا لم أنتَ أنتَ، ولا كيف أنتَ أنت.

102. ليس الهم الخاص، وإدخال الهم الخاص في النفوس في اللحظة المناسبة وبالحكمة الرفيقة من قبيل الفلسفة والرفاهية الفكرية. بل هو المسلك إلى أعماق كل النفوس، والمفتاح لأغلاقها. المسألة في الكيفية والتوقيت: كيف نتسلل إلى الأعماق حين تقتحم على حياة الناس المنايا والرَّزايا سكونَ الأيام، وحين يقرع الطارئ المزعج الأبواب.

103. لا شيء يعظ السادر في غفلات يومه وغده، وهموم بؤسه أو رغَده مثل ذكر هاذم اللذات: الموت. الموت وذكراه، والحياةُ العجيبة وتصرم الأعمار. لا تَفَصُّحُ الواعظ المُغرد على أعواده، ينظم الكلام، ويصف ما الناس عن الاهتمام به نيام. لا سيما تحت الحكم العاض ووسائل إعلامه المنصوبة لاقتناص الاهتمام واختلاس عمر الأنام. تُدْغَم حصة الواعظ المتفصح بين حصتين من مسلسل هازل وأغنية ماجنة.

104. لا سيما إن كان الواعظ المغرد خليا من هم الآخرة، شجيا بطموحات دنيوية إليها يتشوف، وفيا لطاحون الإعلام مداح الملوك والرؤساء والأمراء إليهم يتزلف، ومن بطشهم لا من الله يتخوَّف.

105. المطلوب لغد الإسلام عالم واعظ معلم مربٍّ خاشع لله، منيب إلى الله، خبير بما تجيش به نفوس عباد الله، وبما هو حشو

أدمغتهم، أمين على وحي الله، رفيق ليربيَ صبرُه وتُؤدتُه الفارين من ديار الغفلة إلى الله، حكيم في خطابه، ربَّاني تُصيب أنَّات قلبه أسماع الفطرة قبل أن تقرع كلماته آذان الحاضرين الغائبين.

106. يعظ بالموت، وهو الواعظ الأكبر. مصيبة كبرى طرقت، وكلمة من صادق قد عَبَرَ بقلبه من آلام الدنيا وآمالها، فهو في الآخرة يقينُه، وإلى الله الذي يحيي ويميت حركةُ سعيه وسكونُه. يعظ الموتُ والرزية، وتعظ الكلمة الصادقة من قلب خاشع. لا تعظ الكلمات المنمَّقات، ولا سرد الآيات المحكمات والأحاديث بإسنادها ورواتها، تمر فصيحة من فوق الرؤوس لا تسلك إلى القلوب، ولا تفتح بابا للتوبة من الذنوب. لا سيما إن كان الواعظ موظفا مأجورا، حسابه مع الساعات: كم حَصَل من حِصَصٍ، وكم في النفقة من خَصاص وغُصَصٍ.

107. واعظ لا يتعظ عليم اللسان أنَّى تؤثر موعظته. وعن علماء الآخرة تجدون -أحبتي- وصفا بليغا في «إحياء» الإمام الغزالي رحمه الله في كتاب العلم. وعن علماء الدنيا وصف هنالك أيضا، وعن علماء الجدل ومجالس مناطحة الأقران للفوز بسمعة والبروز بين الأقران بطلعة. لله دَرُّ الإمام من مُطَّلع خبير! كان له من نفسه واعظ بتوفيق الله، فهجر المكانة، وجفا الخلان، وترك أهل الزمان والمكان.

108. وصف الإمام رحمه الله أدواء النفوس البشرية وعاهات الغافلين وصف خبير مطلع. ووصف الدواء، وقص تجربته مع نفسه.

ويبقى الوصف في طروسه[1]. من يقرأ الغزالي في زمن الفتنة العارمة السريعة؟ من له وقت في زمن اللهو الإعلامي والترف القاروني، والبؤس في دار الهوان، ليقرأ الغزالي؟ من يوقظ إن لم يكن العالم الجامع المطلوب لغد الإسلام يتربص ساعة هبوب العاصفة على زرع الناس لينذر ويبشر؟ من يفعل ذلك إن لم يكن الواعظ هو نفسه يقظا إلى مصير نفسه حاضرا مع مشهد رمسه؟

109. الوصف على سطور كتاب، أو في كلمات خطاب، لا يعدو أن يكون كلاما من الكلام. متى يتحول العالم عاملا بما يعلم، والواعظ خاشعا منيبا متأثرا حزين القلب، والمتكلم المجادل في البدع يُكَفِّر المسلمين والناس أجمعين مربيا رفيقا، والأجير في وظيفة الواعظ وحساب الساعات والحصص حارثا لآخرته، وعمامة السلطان، المتزلف إلى جاه الدنيا وفراعنتها عبدا لله لا يرجو غير الله ولا يخاف إلا الله؟

110. متى يتحول؟ وكيف يتحول؟ وبم يتحول؟ لا شيء يؤلم قلب الدعاة الصادقين مع الله، الماسكين بتلابيب أنفسهم يحاسبونها على ما فرطت في جنب الله مثل مشاهدة المتكلم الجاف المليء الوِطاب بالنقول، ومثل المثقف المُنجَرف مع السيول: ذاك يريد أن يكسر سيرة مخالفه بالزجر الفظ الغليظ، وهؤلاء يريدون تغيير المجتمع إلى صورة تصوروها عن الإسلام، وعن الديمقراطية، وعن الشورى. ولا يحدث المتكلم والمثقفون أنفسهم بوقفة وسؤال

(1) صُحُفه.

يُوجَّه إلى النفس: هل استقمت أنا حتى ألوم الناس على اعوجاج عقيدة؟ هل تغيرت أنا وتحولت حتى أدعو الناس إلى تغيير؟

111. التغيير والتحول والاستقامة. كلمات ما أكبرها في لغة السياسة والدين. لولا أن من الناس من نسوا الله فأنساهم أنفسهم. من نسوا أنفسَهم فنسوا الله.

112. علماء الآخرة نفوس تنظر آيات الله في الكون اعتبارا، وتقرأ آيات الله المنزلة في الكتاب ذكرا لله واصطبارا. قرأوا في الصفحات الأولى من المصحف الشريف أن الكتاب فيه هدى للذين هم بالآخرة يوقنون، وقرأوا في المصحف أن الذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون، وقرأوا أن الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد. فاشمأزت نفوسُهم من نفوسِهم التي لا تتغير عن تحجُّر قساوة، ولا تتحول من رخاوة حضارة وجفاء بداوة، ولا تستقيم على طريق صلاح ونقاوة.

113. اشمأزت نفوسهم وانزعجت. ورحلت تطلب نافح المسك طبيب القلوب مثلما رحل الغزالي رحمه الله. ووجدوا بذكر الله في النفوس اطمئنانا، وبالآخرة إيمانا وإيقانا. وبذلك انتقلوا من الوصف السالي والجدل القالي المتعالي إلى الاتصاف. وجد صبيٌّ دينهم في صحبة الأخيار ما يُقيم أَوَدَه ويَشُدَّ عضدَه، وجدوا منفذا من الدائرة المغلقة التي لا يفلت من سياجها سجين ماضيه ومنصبه وسمعته وكبريائه. بجناحيه يطير، وغيرُ مذهبه شرٌّ مستطير.

114. من أين تأتيك الاستقامة يا عبد الله، ومن أين يبدأ تحوُّلك وتغيُّرك إن كنت بحالك راضيا، وفي طريق مألوف عزتك واعتزازك بنفسك ماضيا؟ من أين يأتيك شغف حب الله، ولهف الإقبال على الله، وعزيمة الصبر على الله ومع الله، وحزم اتباع سنة رسول الله عملا بالقلب والجوارح، لا نبزا لمخالفك باللفظ الجارح؟ من أين؟من أين؟

115. ذلك باب تقرعُه ولا من يجيب إن لم تنهض بك همة، ولم تَرِشْ جناحك من الملَك لِمَّة. الهمة واللمة المدخل إليهما صحبة في الله، وتحاب في الله، وكينونة مع الصادقين أهلِ القرآن أهلِ الله.

116. الصحبة في الله في مجالس الإيمان والذكر. مجالس يُباهي الله عز وجل به الملائكة. وليل تقوم فيه إلى صلاتك وتهجُّدك. ناشئة الليل التي هي أشد وطئا وأقوم قيلا. تُنشئها فتُنشِئك، تتمنطق[1] بالصبر وتشمر عن ساق الجد، وتُعَوِّد لسانك على ذكر الله في كل أحوالك، وقلبك على الحضور مع الله في حَلِّك وتَرحالك.

117. ذلك، أو تزداد قلوب مواتا، ويطول الأمد فتقسو القلوب وتتحجر فإذا هي ركام ركيم وعظم رميم.

118. ذلك، أو تُنصِّب نفسَك على الناس وكيلا، داء عضالا وبيلا، تتهم الناس وتشتغل بعيوبهم أو بما تحسبه عيوبا عن عيوب نفسك. تنصب نفسك على الناس وكيلا؛ تحاسبهم على ما فرطوا

(1) تتحلى.

في السُّنة، وما أضاعوا من فرض الكتاب، وفرض السُّنة والكتاب أن ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾[1].

119. ذلك، أو تنصب نفسك شُرَطيا يحقق ويفتش، ويعنُف لا يلطُف. المسلمون في سجلات تحقيقه مجرمون حتى يتبرأوا في حضرته من الشرك، ويتطهروا من البدعة، ويشهدوا شهادة الحق يدمغها[2] بطابَع رضاه، وإجازته وفتواه. والبدعة في الدين هو اعتسف بها واقترف، أنكر ذلك وما اعترف. ابتدع في دين الله، يشق عن قلوب أهل لا إله إلا الله، ويتجرأ على أمر الله لرسول الله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾[3].

120. ذلك، أو تنصب نفسك قاضيا حاكما في عقائد الناس، لا مسلم في الدنيا إلا من سلَّمتَ له، ولا عقيدة صحيحة إلا إن مرَّت من مجلسك، وجادَلَت عن نفسها كأنك قيُّوم يوم الحساب، ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[4]. وكأنك عن حكمة الأنبياء والمرسلين الدعاة إلى الله بإذن الله ساهٍ لاهٍ، أو في جهل مُطبَق متناه. حكمة رسول الله خاطب بها شعيب عليه السلام قومه إذ قال: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[5].

(1) سورة الأنعام الآية 67.
(2) يطبعها.
(3) سورة الغاشية الآيات 22-24.
(4) سورة النحل الآية 111.
(5) سورة الأعراف الآية 86.

121. تصحب الأخيار وتجلس لذكر الله مع الأبرار، وتلزم صف الصلاة مع المسلمين في مساجد المسلمين. فإذا نصَّبت نفسك محتسبا مفتيا قاضيا إماما مسجدا قبلة فقد غرَّتك الأماني.

122. لعل من الصواب -أحبتي- أن نعيد مرة قراءة كتاب الأستاذ حسن الهضيبي رحمه الله «دعاة لا قضاة». إن كان رحمه الله كتبه بمناسبة تَنطُّع بعض رفقائه في السجن، وإن كانت السنون قد أبلت جديده، فالعبرة منه لا تزال قائمة، والنعْرة المتعالية القاضية الوكيلة الشُّرطية أنواع، وجبال وتِلاع.

123. ومن الصواب إن شاء الله أن نعيد قراءة إحياء الإمام الغزالي رحمه الله لما فيه من عوائد فوائد، ولما فيه من كشف عن المهلكات من كل نمط، وتعرية عن المصادر النفسية للوَكْس[1] والشطط. ولما فيه قبل كل شيء -وفي سائر كتب الإمام رحمه الله- من حَثٍّ على صحبة «متبوع مقدم» حسب تعبيره رحمه الله.

124. فإنه إن اتفق المسلمون على أن حب الله، والحب في الله، والتقرب إلى الله، والاستزادة من الإيمان، مطالب شرعية، وتعاليم قرآنية سنية، فالخلاف بين المسلمين في كيف تُنال تلك المراتب وتحاز هاتك الرغائب. الكيف والمدخل والسلوك هي العتبة التي تتعثر دونها وعندها الأقدام.

125. قال باسط الكف بأوراقه: لا واسطة بين العبد وربه. وهذا حق إن استثنينا الرسول المبعوث بالقرآن، والملَك النازل بالوحي،

(1) للغبن.

والأبوين اللذين آوياك، والناس أجمعين في الأصلاب والأرحام. لا واسطة بين العبد وربه فهو سبحانه قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، لكنه هو سبحانه وضع الأسباب، وإلا لاهتدى الناس جميعا لقراءة القرآن، لا يهتدون –من كتب الله لهم سبحانه الهداية في الأزل– إلا استجابة لنداء، وخشْعةً في مجلس ذكر، وارتداعًا وزلزلة إثر مصيبة، وتأثرا بقدوة.

126. لا يستغني الجنين عن بطن، ولا الوليد عن رضاع، ولا النامي عن المُدِّ والصاع. وإلا بَادَ الحيُّ وانقرض، وبطل ادِّعاء من شقَّق الكلام واعترض. لا واسطة بين العبد وربه حقا. والحضن الحامل أجنةَ الإيمان حق في عالم الأسباب، وغداء القلوب بالذكر حتى يستقيمَ اعوجاجها ويقل لَجاجها حق، وإلا باد الإيمان وانقرض، وبطلت دعْوى من اعترض.

127. يتفق المسلمون على المطالب العالية، ويختلف المخالف في الكيف والمدخل وضرورة حاضن الجنين والمُغَذِّي بالشوق إلى الله والحنين. يخلق ذلك في أجنة القلوب اللهُ، وينشئ الشوقَ الله ويفعل الله، لكن عند أسباب وضعها سبحانه كما تنقدح النار من شَرَر. إن جهلت مكان الشَّرر واحتقرته لا يستوي قِدْرك، وإن جحدت صحبة الذاكرين العارفين بالله فأنت وقَدْرك.

128. صحبة في الله صدَّقت فيها رسول الله فحضنتك وأنشأتك، أو جحدتها ورددتها وأوَّلتها وناوشتها بكلام أهل الكلام فأَنْسَأتْك. ما الكيف والمدخل وضرورة المحضن، صنعة اخترعها الصوفية وتفنن أمثال الغزالي رحمهم الله في الإشادة بها يملأون بها السطور.

إنما هي شهادة كل جيل من علمائنا العاملين رحمهم الله يبثُّون في المكتوب أخبار القلوب. كلٌّ سُقي من رحيق المحبة فانْتشى، فمنهم من باح بذات صدره وسكر، ومنهم من نطق صوابا، ولزم للتوبة وسؤال حسن الخاتمة بابا.

129. ويمتطي الخليُّ، ما زاره طيف شوق إلى الله، صهوة جواد عناده، كأنه مدير عرْض يسوي الصفوف، أو ضابط عسكر يهدد بالعقاب والحُتوف. الصف صفه وعصاه الحجة، من أطاعها وعرف سلطتها فهو في نعم المَحجَّة، ومن رفع رأسا ولم يكفر من كفره القاضي فهو من الشرك والبدعة في لُجَّة. لو كان في الطب ما يعالج تلافيف المخ من عضال داء تكفير المسلمين وتبديعهم بغير حق لرجَوْنا لبعضهم إلى سواء السمحة الرحمة إيابا، ولمن طحنهم حب الرئاسة واللجاج إلى التي هي أحسن انقلابا.

130. لا يزال كتاب «الإحسان» ينتظر فرصة للنشر[1]، كتاب وصف لما هو حب الله، والسير إلى الله، وولاية الله، والقرب من الله، والكمال والاكتمال. وصف يصف الكيف والمدخل والمحضن. لكنه لا يعدو أن يكون وصفا لا يهز من الخَلِيِّ السالي الغائب في غفلته ساكنا. وصف حال من مضى من الرجال وما بحثوا وما الْتاعوا[2] وما خلَّفوا لنا من شهادات عن مسلكهم هي من ذخائر الأعْلاق ونفائس الأرفاق. وصف لا يحرك ساكنا فيمن هجع هجْعته بين الرفاق، وأنس لتسويد الأوراق، ونفخ الأشداق في اللجاج والشقاق.

(1) صدرت الطبعة الأولى منه سنة 1998.

(2) اشتاقوا.

131. وصف هناك تقرأونه أيها الأحبة شهادة تائه -كان- فأعثره الله عز وجل على رجل رشيد. قرأتم فصله الأول في كراسة نُشرت،[1] بها شهادات فطاحل من رجال هذه الأمة بعث الله عز وجل في قلوبهم لوعة الشوق إلى معرفته والمسارعة والمسابقة إلى مغفرته ورحمته. ما يفيدني وينفعني مع الله نهض الناس أو سقطوا، كرهوا حالة غفلتهم أو بها اغتبطوا. ما ينفعني مع الله إن كان عقلي مسدودا عن العِبْرة، وكانت عيني مجدبة[2] من خشوع وعَبْرة. يشهد كسلي وانحطاط عملي ببراءتي من الهمة، لا أبالي بمن سبقني إلى القمَّة.

132. في كتاب الله عز وجل الغَناء والعبرة عن كل وصف يأتيك به مخلوق. لولا أن الله عز وجل جعل الناس للناس فتنة، وبعث منهم إليهم رسلا، وحثهم على المسارعة والمسابقة، وأكد أمره العالي للمؤمنين أن يكونوا شاهدين شهداء لله بالقسط. مِن هنا ولهذا كتب مَن كتب، وشهد مَن شهد، وأدى أمانة لديه مَن أدى. لا عليه صدق الناس أو كذبوا، قبلوا الشهادة أو استغربوا وتعجبوا.

133. على أني في كتاب «الإحسان» لم أذكر شيئا من المواجد كما كنت سطَّرت في كتاب «الإسلام بين الدعوة والدولة». لتبقى مكنونات الصدور في الصدور، ولكيلا يبْتذلها التناول في السطور.

134. لا يكمل للعالم الواعظ المفتي المجادل عن الدين كمال في العلم ما لم تتوسع حصائله من منقول ومعقول. ما لم يكن القرآن

(1) المقصود الفصل الأول من كتاب الإحسان، استل منه ونشر قبل صدور كتاب الإحسان كاملا في جزأين.

(2) يابسة.

الكريم والسنة الطاهرة مستقَرّا لحقائق يقينه ومستودعا، وما لم تكُنْ رياضها لتفكره واعتباره واستنباطه وفقهه ووعظه واتعاظه مَرجعا ومَرتَعا.

135. ولا يكمل للعالم المتوسع المحصل كمال في ديوان الرجولة الإيمانية والتقوى الإحسانية ما لم يسْعَ ليله ونهاره، يجفو فراشه ودثاره، يحترق كبده شوقا إلى الله، ويتحسر على ما انصرم من عمره وهو غافل عن الله. يحترق، وبعزائم الإرادة ينتطق. حتى يفتح الله له إلى معرفته بابا، وحتى يذوق من حلاوة الإيمان لُبابا. والأمر لله من قبل ومن بعد. ولن يعدُوَ أحد قدره وسابقته عند ربه. ما أقعدني عن قرع باب الكرم لأعلم هل أنا هنالك مكتوب من الخدم؟

136. يكتمل الواعظ العالم الناظر المجادل عن الدين الفقيه المفتي في نفسه وعقله، ويستنير قلبه بنور الإيمان، تُشع على قلبه الروح بضوئها، وتُمطر سحائب الرحمة عليه من نوئها[1]. وإلا ما حمل عبء المواجهة مع الجاحد والمدافع، والمتحجر المبَدِّع المكفر، والظالم الطاغوت في كبريائه، والغالي الزنديق في غلوائه. تعرضت في رسالتي إليكم هذه، أيها الأحباب، لأصناف من الناس، ما منهم إلا وفي أعناقنا له حق الدعوة بالحكمة والموعظة والتي هي أحسن. ووقفت هنا مع ما يخص المؤمن في حق نفسه، ومصيره ومقامه عند ربه.

(1) من عطائها.

137. ذلك أن التدافع مع أصناف الناس يوشك أن يجرفنا مع التيار إن كنا لم نستوثق مما نحن له طالبون، وممن نحن له عابدون. يوشك أن تتداعى على نفوسنا أمم أصناف الناس، وأصناف ناس الوسواس، فننسى ما كنا نزعم أننا إليه صامدون.

138. من ألد خصومنا اليوم وغدا من أصناف الناس طائفة المثقفين. يلزم أن نعرف ما هي الثقافة، وصفا نتصوره، لنعرف ما هو المثقف. ما من مذهب فلسفي، ومشرب في علوم الاجتماع، ومدرسة من مدارس «علم النفس»، وسرب من أسراب «الملتزمين» السياسيين، وكتابة من كتابات المفكرين إلا وله تعريف خاص بما هي الثقافة والمثقف. عشرات التعريفات لهذا المفهوم الحديث في خطاب الغرب، الكَلِفَةِ به عقولُ أبنائنا وبناتنا ممن مستهم ماسة التغريب والتغرب.

139. الثقافة كلمة مقدسة، والمثقف وصف شرف. يعلي ويغلي من شأن المثقف، وقداسة الثقافة أن المفهوم المتعدد التعريفات كما تتعدد آلهة الهند وأوثان البراهمة فضفاض رضراض[1]. غموض غرفة الساحر يضفي على السحر هيبة، ويفزع الداخل حذراً وريبة. الطاعن في قدرة الساحر على خطر.

140. غموض في عين من اكتحلت عينه بجلاء البيان القرآني، واليقين بما به المؤمنون موقنون. وللمثقف يقينه: إن كان مع ثقافته إلحاد حاد فالمؤمنون بالغيب الموقنون بالآخرة ظلام في ظلام. وإن

(1) الرضراض: الحصى الصغار في مجاري المياه.

كان معه راسب من تربية، وظل من ذاكرة، فالثقافة أمه، والإيمان بالله واليوم الآخر ظِئْر[1] عجوز تستحق العطف والحنان وشكر الجميل أن أعطتنا أصالة، وحفظت لنا هُوية.

141. المثقفون الذين يواجههم الواعظ العالم المفتي المربي المجادل عن الدين اليوم وغدا أصناف كثيرة على طيف الألوان واللغات والمذاهب والمشارب والمسارب، نذكر منهم ثلاثة أصناف: صنف الملحدين الشاكين المُشككين، المنهجية الشكية باسطة أذرعها على الأبواب. وصنف دخلت على مساكنهم الأصيلة الموروثة من أسرة يُصلي أبوها وتشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله أمها وخالتها، داخلة ثقافية لوّنت المياه، وكدرت الصفاء. وصنف هم في طريقهم إلى العودة إلى الدين.

142. نبدأ بقراءة ما أنزل الله عز وجل من تعريف أهل الإيمان والإيقان، لنبصر على ضوء القرآن مواقع أقدامنا في الدخول على عالم الثقافة والمثقفين، ثم نثني بالوقوف مع تعريف للثقافة عسى نتبين من خلاله طبيعة من نحاورهم ونجادلهم عن الدين من أصناف شربت الثقافة حَسْواً[2]، وأوغلت في بحرها رَهْواً[3]، أو انساقت معها عمدا أو سهوا. فما بد من تعريف الطالب والمطلوب. من جانب تعريف رب الناس ملك الناس إله الناس، ومن جانب المجادَل المفترض كلام الناس.

(1) مرضع.
(2) جرعة بعد جرعة.
(3) متسعا.

143. قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1].

144. على ماذا نعرض حال المؤمن المستمسك بالعروة الوثقى والمثقف المسلم اسما، والتراثي رسما، والراجع إلى أحضان دينه نعتا ووسما إن لم نعرض على القرآن الكريم؟ لا يكشف ما انطوى فيك وانطَوَيْت عليه إلا ضوء علوي نافذ في الأعماق، لا يترك للهارب من دينه والمتردد والراجع موئلا ولا ملتحَدا. فإما مؤمن هذا كتاب ربه المبين يشهد له، وإما زائغ هالك يعتبر القرآن الكريم «نصا» يدخل عليه بكامل أُهبته المنهجية الثقافية، يشرح ويشقق، ويؤول ويحقق: هواه برهان، وكلمة أساتذته من ذلك البَرِّ بيان.

145. هذا كتاب الله ينطق بالحق على الناس، ويفصل بالحكمة وبيان الخطاب ما بين ذي الأوجه المتعددة والأيدي المتمددة شأن أوثان الهند وآلهة الهندوس. ويميز ما بين أهل اليقين وبين مشاكس في الدين معاند، بَيَّت النية على رفض الدين كما يُبيت المؤمن النية على أن لا تفوته صلاة الفجر في المسجد. بيان القرآن هو البرهان في عقيدة المؤمن، وهو الكلمة الفصل. يرجع إليه ويذعن المثقف من كل مرتبة، وإلا فما تغني المشاكلة والمماثلة، ينفضح الزَّيْف وينكشف النفاق.

(1) سورة الأنفال الآيات 2–4.

146. دعنا من إشادتك بعراقة حضارة إسلامية هي مفخرتك وعزتك، وتعال نعرض حالنا على كتاب الله العزيز لنعلم أيَّ إسلام هو إسلامنا وأي إيمان. دعنا من شن الغارات الفلسفية على المؤمنين والمؤمنات، وهَلُمَّ نتحاكم إلى معيار المطلق القرآني. تعال ننس شقشقة البرهنة العقلانية الإلحادية، لنقرأ بيان ربنا، ما دمنا وإياك مسلمين اسما مؤمنين زعما.

147. مؤمنون! ما حقيقة إيماننا؟ تطابق أوصاف نفوسنا وأعمالنا أوصاف القرآن أو تقارب، فنحن في عافية العقل وسلامة القلب واستقامة الدين. أو تجانب وتجانف فما أكل كبِدَ المنافقين مثلُ نفاقهم. واتركه يلتقم من زقوم احتقانه واحتناقه. أغلَق على نفسه باب سجنه، وقطَع بينه وبين طلب الحقيقة أسبابَ العلم.

148. خمسة أوصاف يتصف بها المؤمن فيكمل رضاعه في الدين، ويتم رشده. أو تختل من الشروط خصلة وخصال فَيَنِدُّ[1] الشارد عن دينه بقدر خلله وفداحة زلله. حصرت «إنما المؤمنون» مجال الإيمان حصرا. وبشرت «أولئك هم المؤمنون حقا» عامة أهل الإيمان في المضمار. ونادت ذوي الهمة العالية «لهم درجات». وأججت «عند ربهم» نار الأشواق في قلوب العشاق.

149. خمس خصال توجل كل قلوب المؤمنون خشوعا إذا ذكر الله، ويزدادون إيمانا بسماع آيات الله، ويقبلون على الحياة وفرائض العبادة والجهاد متوكلين على الله، واثقين بنصر الله وتوفيق الله،

(1) فَيَبْعُدُ.

ويقيمون الصلاة في أوقاتها، يسعون لأدائها في بيوت الله، ويؤتون الزكاة التي فرضها الله.

150. من آخر ما نزل به الأمين جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ من الوحي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[1]. كمال الدين وتمام النعمة ورضى المولى جل وعلا قرأناه في آيات سورة الأنفال: إسلام تجلت في أهله الخصال الخمس، وإيمان المتسابقين إلى درجات الجنة، وإحسان التائقين إلى درجات عند ربهم. ما بعد هذا ولا دونه من دين.

151. بلغنا رسول الله ﷺ عن الأمين جبريل عن رب العزة خالق الخلق الهادي إلى الصراط المستقيم أن ديننا اكتمل، وأن نعمته علينا تمَّت، وأن رضاه الإسلام لنا دينا ضمانة اهتدائنا وسعادتنا الأبدية إن سمعنا وأطعنا فالإسلام مرجعيتنا، عقيدة القرآن، وشريعة القرآن، وسنة الرسول المبينة، وكلمة الرسول المبشرة المنذرة.

152. كمال وتمام ورضا وطاعة بعد سمع. يعني هذا أن دائرة مغلقة أحاطت بالعقل فلا فجوة؟ وأن لا مكان أمام الوحي وبعد اكتمال الوحي لعلم عالمٍ وتَصَرُّف حيٍ؟ وأن الاستمساك بالعروة الوثقى تصديقا للرسول ورضى بما رضي به الله تصلب على موقف الجمود فلا حركة، وعلى تشنج الموقن بصوابه فلا تسامح، وعلى ماض لا يستقبل حادثا؟

153. وكل أولئك مطالب حيوية في ذهن المثقف الملتزم: كلمة الساعة عنده انفتاح وتسامح وحداثة وديمقراطية ولَحاق بالركب

(1) سورة المائدة، الآية 4.

الحضاري. وتنمية هي غاية الغايات. تنصب وتنهال في خطاب المثقف هذه الكلمات المُرَفْرفة المزَّينة بهالة من الجِدة والإغراء والأهمية.

154. ناشف في تقدير المثقف مخ لا يستوعب قيَّمَ الساعة. القرآن وبيان والسنة وبلاغها عنده محنطات بالية. وهي في أحسن تقدير -لدى ا لمعتدل التراثي- حُرُمات ثقافية وثَرَوات من ذاكرة الماضي، يُحْنى لها الظَّهر إجلالا، وتُقَبَّل أعتابها الشريفة احتراما كما يحترم قبر الآباء والأجداد. ثم نمضي إلى مستقبل ما فيه صداع رأس يسمى اكتمال دين، ونعمة دين، ورضىً ونهاية لمطاف العقل وأفق الطموح البشري.

155. تصب في عقل المثقف ميازيب[1]، تُمِدُّه بالحقائق مصادر، فالاستمساك بمرجعية مطلقة انغلاق. يُسقى حَلْقه من أنهار، فالاقتصار على مشرب واحد يُبْسٌ وغُصة.

156. كان القرآن، وكان الوحي، وكان تطبيق الموحى إليه ﷺ تحريرا لمجتمعات عتيقة. هذا القدْر يعترف به المثقف المغرب عن دينه. بل يغتبط بالاعتراف ليجد عندَك تفتحا يدخُل منه إلى محاكمة عقلية يستدل فيها بمقارنة النتائج في أمة بقيت مستمسكة راضية مُكْتملة تامة مغلقة. متخلفة آخر المطاف منهزمة مغلوبة، وأمم طلقت كل دين، وتنَمَّر بعضها لكل دين، فأبدعتْ، واخترعتْ، وصنعت، وغلبت، وتألقت في سماء الحضارة.

157. يعترف بالإسلام شيئا كان وانقضى. ويجفُل لا يَحْفِل بالسؤال الفطريِّ: لِمَ الحضارة؟ لم الإبداع والاختراع؟ ضَحْلة هي

(1) مفرده ميزاب، وهو ما يسيل منه الماء من موضع عال.

مياه المثقف المغرب عن دينه، آسِنٌ حوْضُه. لا وقت لديه لطرح أسئلة فلسفية عن الوجود والمعنى والمآل ومعنى الحياة والموت.

158. هل ييأس العالم الواعظ المربي المعلم من عشائر المثقفين المُغرَّبين عن دينهم، وعن شِيَعِ المثقفين الشاردين عن دينهم، وعن طوائف المثقفين الجاهلين دينَهم، وعن المثقفين المدجَّجين بالأسلحة المنهجية والدبلومات الأكاديمية؟ وهل يَزْهَد في كتائب المثقفين المسيسين المحترفين السياسةَ، المرشحين بما لديهم من خبرة وتجربة وقدرة ورأي؟ وهل يطوي كشحا[1] عن الخبراء في الاقتصاد والعلوم والإدارة والتسيير ومداخلة الدوائر الدولية؟

159. يكون عينَ الدليل على ما يرمي به المغربون الدينَ إن فعل. يكون حجةً على أن الإسلام انغلاقٌ في دائرة، ودوران في حَوْزةٍ حائرة. كلا، فما نطلب التوسع في علوم الناس إلا لنَتَزوَّد بالمادة الفكرية نحمل عليها إلى الناس -وفي ضمنهم المثقفون المغربون- رُوح الإسلام ورَوْحَه.

160. نفهم أولا -ثم نلقي إلى الناس- أن القرآن الكريم دعانا أن ننظر في أنفسنا وفي الآفاق. أن ننظر ونفكر ونعتبر اعتبارا موصولةً فيه الأنفس بالآفاق. المسلم كتاب مفتوح على صنع الله فيه هو، وعلى صنع الله في الكون وما في الكون درج، نزل أو عرج. لئن عجز المسلمون عما يصنع الأقوام ويبدعون ويخترعون ويغلبون فَلِوُقوف العقل المسلم حائرا تحت ضربات الفتن السياسية، والحروب

(1) تَرْكًا وإعراضًا.

الداخلية، واستبداد الحاكم، واعتكاف المجتهد على أحكام الشرع في القضايا الفقهية اليومية، وانكفائه عما وراء ذلك.

161. كانت ولدت على أرض الإسلام أيامَ ازدهاره الحضاريِّ مولودةٌ عبقرية اسمها المنهجية العلمية التجريبية. تعايشت في ذهن أمثال ابن الهيثم رحمه الله، الفقيه في الدين كما هو بصير بعلم البصريات، مَعَ المنهاج الإيماني. تعايش النظر في الأنفس مع النظر في الآفاق. تآزر علمٌ تلقَّته الفطرة التائقة إلى المعرفة الحق المطلق مع علوم نشطها فضول العقل المسلم لمعرفة مكنونات الكون، وشجعت ظهورَها وتأَلُّقَها عبقرية مُسلمة، وفُرَص متاحة في مجتمع مسلم لمَّا تجمدْه ضربات الغزو البدويِّ العشائريِّ الأقواميِّ من ديلم وسلاجقة وعمالقة.

162. وظفر آخرون على حسناء العقل المسلم -المنهجية العلمية التجريبية- فأخْدَموها بناتِ أفكارهم في صقلية الطليان، وجبال الإصبان، وضباب بلاد الجرمان، وسهول هولندة وسائر العجمان. ونبغ بنو الإنسان في العلوم والصناعات والاختراعات. وتجمعت في أيديهم من أسْلاب الحضارة المسلمة، ومن خَدَماتهم المُثابرة السائرة علوم كونية دَوَّخوا بها الدنيا وأهلَها، ولا يزالون يُدَوِّخون.

163. كانت في أرجل العجمان قيودٌ من الأساطير الكنسية والطغيان الكهنوتي الملوكي. وكان تحرُّرهم، المباغت في ثورة فرنسا، المتدرج -لا يزال- في سائر بلادهم، إيذانا ببُزوغ شمس الحقيقة الساطعَة التي تبهَر عيونَ المثقفين المُغرَّبين عن دينهم.

الحقيقة التي علمها إياهم حضارة الغرب ببريقها ووَهَج سلطانها، ووفرة خيراتها، وتفوق حضارتها وسلاحها وأنظمة حكمها، وسيادة لغاتها، هي أن لا حقيقةَ هنالك وراء ما تراه العين ويحسه المِحْساس الإلكتروني، ويعطي نتائج ملموسة.

164. الحقيقة المتوهجة البراقة الساطعةُ البرهانِ البليغةُ البيانِ -في نظر المغرب المبهور- أن الإنسان سليل سمكة شيطانة عبقرية في سالف الدهور، خرجت من البحر، وزحفت على البَر، وتماسكت، ثم انتصبت دابة تمشي على أربع، ثم نَشْئًا متطورا على مدى مآت الملايين من السنين، حتى أَقامت قامتها، وحتى تعلمت بغريزة البقاء، وتنازُع الأقوياء على البقاء، كيف تدافع عن نفسها، وكيف تتأقلم مع بيئتها، وكيف تُطَوِّر تلافيف دماغها. فإذا هي قرد فإنسان بدائي، فإنسان عاقل صنعتْ منه اللغة والنطق والتعبير دابة تتواصل مع أمثالها، وتُكَوِّن مجتمعا. وإذا هو باني حضارة، فإنسان أبيض هو رب هذه الأرض المعبود في كنائس منجزاته، وأبناك مدخراته، وعملقة صناعاته، وبأس سلطانه، وهيمنة فكره وثقافته.

165. ونحن المغربين له عابدون، وبأمجاده فخورون أنْ كنا نحن أيضا ننتمي لذلك الفصيل المتطور اللامع الذكاء. ذلك نُزَيِّنه بلمسة من أصالة، ونكهة من هُوَية، وطيف من ألوان القومية نضيف به شرفا على شرف.

166. لا نيأس من نجاة مُغَرَّق، ولا نضرب صَفْحا عن مُفَرَّق، ولا نطوي كشْحا عن مَكْوِيٍّ ومحرَّق. وإنما نبسط ما صح عندنا بالمسلَّمة الفطرية، والعقل العاقل عن الله، والقلب السليم،

والمدخل التربوي، والكيف الإسلامي، والمحضن الإيماني. ويهدي الله سبحانه من يشاء.

167. من مكان بعيد يُنادى المثقف المُغرب عن دينه. كان أركبه التعليم الاستحماري في فُلْكه، ودربه على التنسُّك في محراب نسكه. فنحن في أسْوَإِ الأحوال حيال مُخٍّ تالف، وعقل مَعْلوف عالفٍ. نحن حيال ذهنية متفتحة على كل ما نطق، ممن لحِق أو سبق، وصهل أو نهق. متفتح أيضا -في أحسن الأحوال- على أصالة قومه وتراثهم، ينتقي من الأصالة والتراث ما لا يخدش في حداثة هي أُمُّ مفاهيمه، ويرتب للمُنْتَقَى ركنا في دُرْج ذاكرته.

168. للمثقف المغرب عن دينه مرجعية ومعيار هما دين عقله. العقلانية منهجا، والديمقراطية نظام حكم، والتنمية هدفا اجتماعيا وبرنامجا. فإذا كان هذا المثقف مناضلا تقدميا فاللاييكية اللادينية المناصبة العداء للدين هي العملة الرائجة، وجواز المرور وكلمة السر.

169. نتَّبع أسبابَ المثقف المُغرَّب عن دينه سببـًاسببـًا، وسندا سندا لنقف على منبغ دائه، وشيعة أَوِدَّائِه. ونستشهد في القضية شاهدا من أرباب الثقافة وآلهة أُولَمْبِها لنسمع للثقافة تعريفا نتداوله مع المثقفين. نختار تعريفا من بين تعاريف لا تكاد تُحَدُّ. إذ لابد من حصْر لكَيْلا نتيهَ في الفضفاض من عالم الثقافة، ونسيحَ في المشْرعات من أرجائها.

170. نختار تعريفا لأحد أساطين الثقافة المُحدَثين، وأحد ربابنتها المرموقين. هو أندر مالْرو. مات منذ عشرين سنة. كاتب

روائي، صاحب فلسفة ونظرية في الجمالية الفنونية، وزير الثقافة لمدة عشر سنوات في حكومة دكول، شاهد عصره، مناضل مُبَكِّر مع الثورة البرجوازية الصينية سنة 1926، مقاتل في صف الجمهوريين في الحرب الأهلية الإسبانية، مُقَاومٌ احتلالَ الألمان فرنسا، أبلى في كل ذلك البلاء الحسن، واستحق أن يُدفن رفاته في البانتيون ضريح عظماء الأمة الفرنسية.

171. حجة في عالم الثقافة والالتزام والنضال بكل المعايير. فارس ممتاز عن رجَّالة الثقافة وسواد المثقفين، يُغَبِّر في وجوه اللاهثين من أبناء جلدتنا وبناتها وراء الركب الثقافي.

172. يُعَرِّف مالرو الثقافة –وهو ابن بجدتها وحامل رايتها– بأنها «كل ما يخبر الإنسان بما جاء يفعله في هذه الحياة». إن كان المؤمنون والمؤمنات يخبرهم الرسول وينبئهم القرآن بمعنى وجودهم، وغاية حياتهم، فالمثقف تخبره بذلك الثقافة. فكل ما كتب ونطق وأَلَّف من رواية، ونظَم من شعر، وتخيل من مسرح، وأبدع من فن فهو مُخْبِرٌ المثقف عن معنى حياته وغاية وجوده. غُدَّة تنْطُفُ[1] بالإحساس وتتحدث عن آلامها وآمالها: مخبر بامتياز. واصف مشاعرَ عاشقٍ ومعشوقة، نَهِمٌ[2] على ملذات الحياة ينبِض نثره وشعره نبْضَ محموم: مخبر مقبول مسموع. حائر في حاضره متوجس من مستقبله: مخبر ممتع. منسق معلق محقق في التاريخ والفلسفة والسياسة وكل ما تعُج به معارف البشر: مخبر لساعة الجد والدراسة والعمق.

(1) تقطُر.
(2) مفرط.

173. امتاز فارس الثقافة مالرو بجدية المناضل الملتزم، والمقاتل المُخْلص لمبادئه. وامتاز أيضا بالتعبير عن خواء الثقافة -وهو كان عامرَ بيتها ومُنَضِّدَ أثاثها- وعن تهافت ما أمضى عمْرَه ينصت إليه من أخبار المخبرين. وقال قولته الشهيرة: «يكون القرن الحادي والعشرون متدينا أو لا يكون!» بحثٌ بحثه المثقف النموذجي عن مخرج من بيْداء كفره؟ أم خوف من شَبح الزوال وظلام النهاية؟ أم فارس في الحياة انهزم أمام مجهول المصير بعد الموت، مصيرٍ لا تخبر عنه الثقافة؟ أم نضْحٌ على يابس تربة الثقافية نضَحتْه رفقة الجنرال دكول النصراني البطل؟

174. كل ذلك تأملات إن خطرت ببال فرسان الثقافة الجادِّين فإنها لا تخطر ببال الرجَّالة الخدم التابعين.

175. التابعون لا وقت لديهم يضيعونه في طرح السؤال الفَرَضيِّ: الله. سؤال شغلت عن طرحه السياحة في قارات الثقافة وجزرها وخُلْجَانِها[1]. وأغنى عنه وفرةُ الأجوبة وتضاربُ الآراء. إن كان السؤال طُرِح على إنساننا المثقف المغرب عن دينه يوما فقد سمع في الموضوع مائة رأيٍ، وقرأ خلاصة عشر فلسفات. وانتهت القضية، وطُوِيَ الملف.

176. سيل المعلومات المخبرات، وسحر المكانة الاجتماعية، والانهماك في النضال السياسي، والإبداع الفني، والإنتاج الثقافي.

(1) مفرده خليج، وهو امتداد من الماء متوغل في اليابس.

تلك كفاية ودراية ومعرفة لا تترك مكانا للتفكر في عظمة الكون ودقة نظامه، وإعجاز وجوده، ومصيري بعد رقدة القبر.

177. إن الدعوة إلى الله رحمة تحنو، وحكمة تلتمس التي هي أحسنُ لإنزال المُسْتعلي المستكبر بمُقْتَنيات ثقافته إلى تواضع ودهشة وحيرة. ربما تجد المثقف المغرَّب علِقت بذهنه المقالات الأرسطية «الفلسفة تبدأ بالدهشة». علقت بالذهن مقالة عتيقة نسختها المُدهشات من ابتكارات العصر، ونسختها مقالة اليهوديِّ ماركس «الدين أفيون الشعوب»، ونسختها مقالات اليهودي فرويد «التفكير في الموت وما بعد الموت مرض».

178. لا يندهش المثقف المغرب عن دينه من عجيبة الكون، وغريبة وجود نفسه وجسمه وعقله وحواسه ونظامه. كل ذلك، والسؤال عن ذلك، مضيعة للوقت، ومَلْهاة عن الأهداف الموضوعية للحياة، وعَبَثٌ بدل الجد في تحصيل أسباب الشُّفُوف الاجتماعي، والنفوذ السياسي، والتألق الأكاديمي، ولَمِّ الثروة المادية الضرورية لرغد العيش.

179. هذا هو المثقف المغرَّب في نفسه وتعريف بني جنسه. بنو جنسه في وظيفتهم أشكال: إن كان من أراذلهم من يعقد الصفقة الوسخة مع الحاكم، ويتمالأ[1] مع أعداء الحركة الإسلامية على الحركة الإسلامية، فمعظمهم مرابط في ثكنات نضالهم: في النظام التعليمي، سوسةً في فَقار جسم الأمة. ذاك السخيف النحيف يجاهر

(1) يتعاون.

بالعداوة والبغضاء، وينبز بالألقاب ويلمِز ويغمِز. وهذا يثابر على شغلته اليومية بوفاء للثقافة وإخلاص، يجْهَد ليحرر عقل المسلمين من مخلفات العصور الظلامية، عصور ما قبل الفلسفة التنويرية، والثورة البلشفية، والديمقراطية اللبرالية.

180. رَقاعة السخيف، وسَخافة الرقيع من المثقفين المغربين عن دينهم، وجشع المتزلف من الرقعاء المثقفين، وحِلْف المثقفين الرقعاء المُتزلفين مع الظلم لا تؤذي إلا ظهور المؤمنات والمؤمنين حين تكون هراوة الحزبيِّ المثقف هي هراوة السلطان، وحين يبكي المثقف السخيف على كتف الحاكم يستعْديه على المؤمنين والمؤمنات لينتقم له من هزائمه.

181. أما المثقف المخلص لمبادئه -وأحيانا تلتقي السخافة مع الإخلاص للمبدإ- فهو جاثم في الجامعة أستاذا، وفي الإدارة رئيسا، وفي الدوائر العليا للحكم آمرا ناهيا مخطِّطا. فهو يُدمِّر العقول، ويقضي على آمال أجيال لا تخضع لكبريائه، ولا تشاطره آراءه. وهو جاثم في مكان القرار والبرمجة والإنتاج واستيراد المسموع المُصور لوسائل الإعلام. فهو يصنع المُيوعة وسوء الأخلاق، وأخلاق النفاق. وهو نِقْمة تسعى على رِجْلين ضد كل فضيلة ودين.

182. نعم! لابد أن يعرف العالم الفقيه المربي المجادل عن الدين ما يدور في خَلَد أعداء الدين، وما يروج في أوساطهم مما تَنِمُّ عنه منشوراتهم، وما يَرْشَح من أخبار مؤتمراتهم الغزْوية على الدين مع نظرائهم من يهود البرية وصليبييها. لابد أن تعرف ما حشْوُ الأدمغة لتستطيع الحكمَ بموضوعية على أسباب السلوك العدواني،

وعلى أسباب العدوان والعداوة للإسلام. ولتستطيع النفوذ بحكمة الدعوة وبصيرة فصل الخطاب إلى خبايا الطوايا لتستنقذ أجيال اليوم والغد من حبائل التغريب، وشبكات التلييك.

183. ولتستطيع بسْطَ أسارير بشرك، ورحمة ندائك للشاردين عن الدين، الضالين في فيافي الجحود وصحاري التيه. لتفعل ذلك وأنت على علم وبينة من استعداد مخاطَبك، وارتداده واعتداده بنفسه، وغروره وظلام قبوره.

184. من أعماق الأرض الميتة، أرض المُسلَّمة الدوابية التي تقول: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[1] يخاطبك المقبور: ما شأنك بي آمنت أو كفرت، اهتديت في زعمك أو تردَّيت؟ الدين قضية شخصية. فما بالك والفضول؟ وما أعطاك الحق في أن تفرض وجهة نظرك على الناس، وعقيدتك وحقيقتك؟ يا لَلحرية! يا لَضياع حقوق الإنسان! يا لَلعدوان على ضمائر الناس!

185. لو كنت يا أخي فرداً منصرفا إلى شؤون معاشك ما باليتُ كنتَ أم لم تكن. لو كنت معنيا بمعاشك وشؤونه ما خاطبتك إلا إبلاغا من قبيل حُبِّ المؤمن الخير للناس. لكنك رقم في جيش، عضو في حزب، جزء من آلة، محطة تبثُّ، قلم يخط، عقل يخطط، آمر أو مأمور ينفِّذ، أنت تُرشح نفسك لتقود أمة، لتحكمها، لتذهب بها مذهبك. إلى أين تذهب بنا؟

(1) سورة الجاثية الآية 23.

186. أتركك لموتك الطبيعي لو كنت فردا مشتغلا بخُوَيْصة أمرك. لا يعنيني سلكتَ أم هلكتَ. لكن لَسَنَك الثقافي، وجرائدك المدعومة، وتكاليفك المدفوعة من مال الأمة تضع تحت تصرُّفِك وسائل التنفير من الإسلام، ووسائل تضليل الناس عن دينهم، ووسائل الصَّد عن سبيل الله، وأسباب التعاون مع أعداء الإسلام في مؤتمراتهم.

187. لا تعدم أنت وحفاؤك من داخلٍ وخارجٍ نماذجَ دمويةً همجيةً إرهابيةً هناك وهنالك في عالم القوميات المتصارعة، والعصابات المتهارشة، والطَّغمات الجهنمية[1]. نماذج تحسن عرض شوْهاتها، وتُخرج إخراجك الفني أخبارها، وتلتقط من مجلات اليهود والصليبيين مقالات وصورا، وتترجم وتنشر. وتعمم وتصدر أحكامك: الإسلام همجية وإرهاب، وإدخال للدين في السياسة وإقحام. هؤلاء الملتحون وهذه المتحجبات همج ظلاميون.

188. لأنك تفعل ذلك، تبوح وتنوح أن مضى زمنُك وخاب سعيُك، أشتغل أنا بالتنقيب عن منبِتك في مدارس الاستحمار، وعن مسيرة التغريب الذي أخذ بيدك طفلا ويافعا ورجلا، وعن الثقافة التي أخبرتك روافدها الجارية إلى عقلك ونفسك وظاهر حياتك وخافيها ماذا جئت تفعل في هذه الحياة. أَشتغِل بك وبمرجعية فكرك لعل كلمة بليغة تخْرق متاريس المنعة الثقافية العقلانية جداً. لعل

(1) أراذل الناس وأوغادهم.

كلمة بليغة هي كل سلاحي إن كنت أنت تحتمي بالحاكم وهراوته ومحاكمه وسجونه.

189. أفعل ذلك قبل كل شيء لأن في عنقي واجبا من قِبَل الله عز وجل أن أكشف دخائل التغريب والاستحمار لأجيال ما حضرت تاريخ عملية التغريب والاستحمار. أفعل لأخبرك -وأنت الراجل في خدمة فرسان الثقافة السيدة- أن إسلام آبائك وقومك هو كلمة الله للإنسان. أفعل ذلك وقد خمد فيك حِسُّ الدهشة فلا تتعجب من وجودك، فلعل كلمة نافذة توقدُ رمادك. أفعل ذلك وقد طُمِرت فطرتك تحت ركام الأشياء وتزاحم الآراء، فلعل جَذْبة إلهية تنشلك من ركامك تكون كلمتي لها أَذَانًا ساعيا خادما.

190. كلمتي أخي إليك عن الذي صَحَّ عندنا بالمُسَلَّمة الفطرية والبديهية الخَلْقية التي فيكَ وفيَّ، طَمَرتها جناياتنا على أنفسنا أو كشفت غُمَّة الركام عنها هداية ربنا. صحَّ عندنا أن الله عز وجل خالق هذا الكون هو خالقنا. صح عندنا ذلك لأن عقلنا لا يقبل بمقتضى تركيبه وطبيعة اشتغاله أن المصنوع المُحْدَث يخرج من عدمٍ لوجودٍ بدون صانع. بديهة اشتغال وطبيعة استدلال لا يعمى عن ناصِعِ حَقِّها إلا بصرٌ تَزَيَّف ومخٌّ تَليَّف.

191. أي نمط من الناس أنت يا أخي، يا من غرَّه بالله الغَرور؟ وِعاءٌ أنت لأي ركام ثقافي صُبَّ فيك؟ مطية رزية أنت تحمل وزرَها؟ قناة آفة أنت؟ استمع ساعة من نهارٍ كلمة حدِبٍ عليك حزينٍ عليك.

192. صح عندنا بعد المسلَّمة الفطرية التي خدعك عنها وحجب عقلك وقلبك عن بصر ضحاها أن سيدنا محمد ﷺ رسول من عند الله جاء بالمعجزات والبينات من الهدى والفرقان.

193. آمنا استجابة لفطرة مغروزة فينا، واستنارة وتأليفا بتربية أبوين مسلمين، ومعلم مؤمن، ومرب محسن. ما مسخ فينا الفطرة وما ردَمها عَتادٌ ثقافي اكتَلْنا منه نصيبا لمكان الإيمان وسلامة الفطرة. والحمد لله على النعمة والمنَّة.

194. آمنا بفضل الله، وزادنا إيمانا تلاوتنا كتابَ الله. ما تشاكست[1] فينا أخبار الثقافة وإخباراتها -وقد سمعنا من هُرائها ما سمعت- وأسمع الله بمنه وكرمه آذان قلوبنا الخبر اليقين والنبأ العظيم، خبر الحياة الأخرى ونبأ ما بعد الموت.

195. مِنة الله على عبده بالإيمان، ونعمته عليه بزيادة إيقان، رسَّخت عنده الجزم بأنه خُلِق ليجدَّ ويسعى لدنياه يتخذ من دنياه زادا لآخرته. إخبار كتاب الله عز وجل عبدَه بالحقيقة عن المبدأ والمعاد، وعما جاء يفعله في هذه الدنيا، فتح له مَسْمَعا في العقل والقلب، فلا تنازعه إخبارات الثقافة المُفتَّحة الأبواب على رياح البث المائج والالتقاط الهائج.

196. لا يحجبْك أخي ما تحسبه عُنْفا لفظيا وكَيْلَة شتائم عن الرسالة التي يتضمن خطابنا. إن كان دين الثقافة وأدبها أن يستوي «حق» المادي الملحد، والكافر والزنديق بحق من يشهد أن لا إله إلا

(1) تخالفت.

الله وأن محمد رسول الله، فإن دين الإسلام لا يقبل الشرك. من دين الإسلام القول البليغ يُصلت[1] في وجه المعاند، وتُقْرع به أمُّ رأس تَنَطُّع الجاحد.

197. إن كان أدب الثقافة ودينها أن يحترم المثقف رأي «الآخر» مهما كان: خرافة دروينية، وأسطورة فنية، وأحموقة فلسفية، فإن أدب الإسلام أن يُطرَح الزَّبد جُفاء، يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. ولكم الويل مما تصفون.

198. حرٌّ أنت أن تُؤول هذا الكلام على أنه تعصب وتطرف وإرهاب لفظي. حرٌّ أنت في ذلك كما تظن. وإلا فأنت في عنقك أغلال ما تستطيع التخلص منها. في مِزْودتك قاموس ألفاظ حرب على الإسلام، صنعت هنالك وصَدَّروها إليك. في عقلك المثقف المغرب ترسانة أسلحة إيديولوجية. من وظائف عقلك وحقوقه السيادية، وطَوْله وحوله أن يُقبِّح ويُحسِّن ما يشاء. لا بل إنما يأتمر في ذلك عقلك بما تمليه آداب الثقافة، ويفرضه دينها، ويجيزه قانونها.

199. نتمنى لك وندعو أن ترجع إلى دين آبائك وأمهاتك وتفتح يوما المصحف، وتقرأ من آيات الله ما يجلي لك وصف أصناف الناس، وما يقبح لك القبيح عند الله، وما يُحَسِّن لك الحسن عند الله، وما يُزهِّدك في الفاني من الحياة الدنيا، وما يُرغِّبك في الباقي من نعيم الآخرة، وما يُخوِّفك من خزي الخاسرين الدين خسروا أنفسهم

(1) يُشهر.

وبعثروها في هُراء ما له معنى، وهوسٍ يبقى هنا وتصير أنت بعد موتك إلى ظلمة قبرك. ويحك ماذا في ظلمات القبر، وما بعد القبر!

200. تقول: لولا كانت كلمةً لينةً كالتي أُمِر موسى وهارون عليهما السلام أن يقولاها لفرعون! كانت تكون الكلمة اللينة وحدها حكمة، ونحن بصدد قولها. كانت تكون لو أن السحرة حول فرعون، والصفقات الوسخَة مع فرعون كانت في سذاجة قوم فرعون، وصدق سحرة فرعون: آمنوا برب موسى لما استبانوا الحق مع موسى.

201. لكن سحرة الثقافة المسحورين ببريقها، والسابحين في مياهها، قوم لُدٌّ[1] يحسبون كلمة الدعوة اللينة استكانة راهبة، واستمالة راغبة. ماذا أفعل بك وأنت في هُوِيِّكَ السياسي، وتهافت فكرك، وانخساف ضوئك؟ ماذا أفعل بك لولا رجاء إنساني ودعوة إسلامية أن يهديك الله فأجدَكَ غدا يوم الحساب في ميزان حسناتي؟ أجدك أن طرقْتُ بابك، وحبكْت من الخطاب ما يكره إليك الكفر ويحبب إليك الإيمان.

202. أجري على الله إن رفضت أن تفتح المصحف بجد الباحث عن الحق، وولَّيت مدبرا، وأعرضت حسيرا منحسرا. أجري على الله إن حسبتها شحنة بغضاء وصحراء رمضاء. أجري على الله إن عز لقاء ولم يتحرك فيك سؤال.

(1) خصماء أشداء.

203. صاحبك مالرو يقرئك السلام في وصيته: «يكون القرن الحادي والعشرين متدينا أو لا يكون». هو قالها تفلسفا واستشرافا واستنتاجا من مراقبة التاريخ وسَيْره، والبشرية وحاجتها إلى خلق يقيم اعوجاج أنظمة الحكم الديمقراطية، ويرفع من شأن المروآت في تعامل الإنسان مع الإنسان، ويقي مستقبل الإنسانية أخطارَ تهديد الصواريخ الذرية، وأخطارَ إفساد البيئة، توشك الكرة الأرضية والأجواء حولها أن تصبح مزبلة لا تصلح لعيش الإنسان. هو كانت له عاطفة إنسية، والتزام بقضايا إنسية، وتفكير رفيع بمعيار المروآت الإنسية.

204. وأنت أخي، ما أشد عَنَتَك[1]، وما أقساك على نفسك، وما أزهدك في سعادة دنياك وآخرتك، إن أنت قضيتَ وحكمتَ وانتهيت بأن هؤلاء الملتحين وهذه المحجبات أعداء ظلاميون للثقافة والديمقراطية والتنمية والتقدم والإنسانية. قضيت وحكمت وعرضت. فكيف الصُّنع معك؟ من أين المدخل إلى عقلك وقلبك؟ ماذا تعني كلمة «ثقافة» وكلمة «ديمقراطية» حتى أجيبك لأي شيء أنا عدوٌّ. غرفتُ من الثقافة مثلما غرفتَ. ووصيتي للأحباب العلماء الوعاظ المربين أَن يطَّلعوا على ما يخبرهم بالكون وما فيه، وبالتاريخ وما فعل الناس، وبالفكر الإنساني وفلسفاته، وبما يَجِدُّ من علوم. ثم لا يكونوا سَفْسافا يجره سيل الثقافة المُلحِّدة.

(1) عنادك.

205. حقائق بسيطة نسوقها بين يديك بعبارة بسيطة، إن كانت الدورة حول ماضي الإنسانية وحاضرها ومستقبلها وتديُّن القرن الحادي والعشرين يشق عليك الصبر لتسمع كلام «الظلاميين» فيها. حقائق بسيطة جاءنا بها الوحي من عند الله عز وجل على يد رسول الله ﷺ.

206. حقائق أنك هالك خاسر يوم القيامة بإسلام مُزيَّف، بإسلام اسميٍّ، بإسلام «كلنا مسلمون» لا يُسأل أحد عن حقيقة إسلامه، بإسلام في الهواء يعادي أول ما يعادي كلمة «الشريعة» ويعادي من يؤمن بضرورة الحكم بما أنزل الله. حقيقة أنه لا ينجيك من خزي الدنيا والآخرة إلا اعتقاد سليم دِعامتُه الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وأركانه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا، وصيام رمضان. ثم الباب مفتوح لك والدَّرَج أمامك لتعبد الله وتتقرب إليه فيرفعك في معارج الدين من إسلام لإيمان، ومن إيمان لإحسان وإيقان.

207. ثم حقائق أنه خسران الأمة وبوارها وهلاكها بدون إسلام يجمع الأمة ويُوحِّدها، وبدون شريعة الإسلام تُحِلُّ العدلَ في الأرض، وتنشر الأمن بين الناس، وتطهر من الأخلاق ما لا يطهِّره إلا خوف العباد من الله ورجاء العباد المثوبةَ والدرجةَ عند الله. لا تنجمع الأمة ولا تتوحد ولا تقوى ولا يتكتَّل اقتصادها ولا تجد موطئ قدم في العالم السوق منافساته وقوانينه الغابية إلا بالإسلام وشريعة الإسلام.

208. وكل أولئك مطالبُ ضروريات في حسابك إن كنت مثقفا حُرا. تكون الأمة -وأنت منها اسما بارزا في ميدانك - كمًّا مهملا، وهامشا مرذولا، وغثاء سيل في الحياة إن تخلَّت عن دينها وشريعة ربها. وأنت مصيرك في الدنيا تبع لمصير أمتك. إلا أن تغير سِحْنة وجهك، وتستبدل اسما سمَّاك به أبوك، وتلجأ إلى مَواطن ثقافتك تستجْدي معاشا في خدمة أمم الأرض. إلا أن تتغرَّب فيهم ببدنك طوْعا بعد أن غرَّبوا عقلك ووجدانك وإحساسك كَرْها.

209. إن فكرتَ في مصيرك بعد الموت كما يفكر الراشدون العقلاء، وجدت أنه الإسلام أو حفرة من حفر جهنم. وإن حملتَ هم أمتك ومستقبلها وبقائها، تجد أنه الإسلام أو الذوبان. أما إن تزلفتَ للحاكم وأكلت على مائدته وضربت بهراوته ثم تُبْتَ إلى رشدك إذ «لات حين مناص»[1] يوم القصاص، فقد لا تجد إلا أنه الإسلام أو الطوفان. شبح الفقر، وغول المرض، وفاقة البطالة، وظلام الجهل والأمية، وفاحش الكبائر، وخبائث المعاصي، والتظالم بين الناس، وطاعون الرشوة، وسوء الأخلاق، وقبيح الرذيلة، ووباء تشرد الأطفال، وفشو الفسق والرذيلة الاقتصادية وسائر مظاهر التخلف متحالفات نكد وكمد، مخربات مدمرات دين الأفراد وعيش الأمة. تقاتلها بالإسلام وشريعة عدل الإسلام، وأمانة الحكم بالإسلام، وقوة المؤمنين الصادقين والمؤمنات، أو تطأْك الأقدام، وتعبثْ بك الأقوام.

(1) ليس الحينُ حينَ فرار.

210. أعود إليكم – أعزتي في اللجنة العلمية– ملتفتا مما انسقت إليه، راجعا من الدعوة إلى الدعوة. أعود لأسترعيَ انتباهكم وعنايتكم إلى أن جيلكم المبارك، جيل الصحوة الإسلامية، هو جيل انتقال. انتقال من صحوة لا يزال زخْمها في بدايته، كالغيث يبدأ قطراً ثم ينهمر إن شاء الله.

211. تتعاملون مع أجيال قبلكم من المُخضْرمين من أصناف الناس، لا يزالون يتساءلون ما شأنكم، ويستغربون مظهرَكم وفكرَكم ودعوتكم وظهوركم. فالحكمة تقتضي منكم أن تفهموا طبيعة المرحلة والذهنيات التي أمامكم وخلفكم. حكمة وتبصر وتعامل واعٍ ريثما تنشأ أجيال بارئة إن شاء الله من جراثيم الخمول الموروث، والخرافة الساكنة، والذهنية الرَّعَوية، والتدين الرقيق، وسموم الغزو الفكري، وتألُّب حشود جنود المناهضين للإسلام من بني جلدتنا ومن شيعتهم هناك.

212. بل ريثما تُعلِّمون أنتم جيلَ الانتقال خلَفاً تسقونه من رحيق حب الله ورسوله. تغرسون في الفطَر الطَّرية قبل أن تَتَخشَّب كلمة التوحيد، وعقيدة التوحيد. تُزوِّدون الفطر الطرية بزاد التقوى وبكتاب الله عز وجل، يسمعه الرضيع تتلوه الأم المؤمنة لرضيعها، ويحفظه الصبي، وينشأ عليه اليافع، ويستقيم على هداه الشاب والشابة، ويقيم به الرجل والمرأة شأنهما مع الله، وأمرهما مع الناس.

213. تربون وتعظون وتُعلِّمون وتحفِّظون وتتعهَّدون، ناظرين بثقة في الله الغني الحميد إلى مستقبل الخلافة على منهاج النبوة، وعدٍ قرأتموه في كتاب الله وسنة رسول الله. التعليم أساس.

المدرسةَ! التعليمَ! الجامعةَ! التعليمَ! إصلاحَ المدرسة! إصلاحَ الجامعة! الإصلاحَ الإصلاحَ!

214. اعتبِروا هذه الأجيال المغربة عن دينها، والحكام الظلمة، والأعداء من خارج الحدود ومن داخلها، ظِلالا زائلة. فما النصر إلا من عند الله. ومن ينصر الله ينصُرْه الله. وأسِّسوا مجتمعا مؤمنا: الأم، المدرسة، التعليم، تعليم الأم، المدرسة. المستقبل التعليم.

215. نازِعوا الظلال الرائحة إلى زوالها على كل مُرَبَّع: سياسي، فكري، اقتصادي، اجتهادي، جهادي. بالوسائل الشرعية للغايات الشرعية. ثم أنظروها ينزل الله عز وجل على المفسدين في الأرض ما ينزل على المنذَرين. يجيء صباح المنذَرين.

216. غالِبوهم على تربية الأجيال الجديدة. وغالبوا التيار بعزم العزائم، وثقة الموعود بنصر الله. فقِّهوا في الدين من لا يعرف الدين، جادِلوا عن العقيدة من يجادل في العقيدة، بلِّغوا الدعوة من لم تبلُغه الدعوة، خاطِبوا كل فئة من الناس بما يناسب المَدارِك.

217. افْعلوا كل ذلك مستحضرين أن الدين عاد غريبا شتيتا في فهم الناس. مزَّقه في أذهان الناس تجمُّدُ الفقيه التقليدي على نصوص فسَّرها له سلفٌ صالح مضوا وانقضوا وكانوا شُهُبًا رجمت شياطين زمانها، فما يرجُم شياطينَ العصر إلا شهبٌ حية.

218. افْعلوا ذلك وتلطَّفوا بالواقف ينظر إلى الوراء حتى يستوعب حقائق عصره يبصرها على مصباح القرآن لا على سُرج

انطفأت. وحتى تتكيَّف عقلية فقيه يُمْلي من كراسة مشايخه، أليف مَرْبَع مُريحٍ، أو طريحَ فراش المُنْهَك الجريح.

219. افعلوا ذلك حريصين على المسلمين خاصَّتِهم وعامَّتِهم. متعهدين كل نبتة في أرض الدعوة حتى تيْنع، وكل غرسة حتى تَبسُق، وكل باسقة حتى تُثْمر و تؤتيَ أُكْلها.

220. افعلوا ذلك شاكرين الله رب المنة أن استعملكم في أشرف الوظائف.

221. واعلموا وفقكم الله أننا إن لم نزهد في المثقف المغَرَّب نطمع أن يراجع حسابه، ونحرص على تبليغ كلمتنا إليه، فنحن على إخواننا المهتدين العالِمين أشد حرصا.

222. إخواننا علماء الدين وفقهاء الفتوى وعمار المساجد هم عُدَّتنا بعد الله تعالى غدا. إن كان بعضهم من عمائم السلطان أكل من طعام الوقت وآثر العافية في ظلال الحاكم الوريفة، فإن القدَرَ يوم يدق دقته، وإن الطوفان يوم يجرف جرْفته، كفيلان أن يفتحا أعين مؤمنين سددوا وقاربوا، وأخطأوا. وما هو إلا اللَّمم يصيب منه المرء في غفلة نفس ونزْغة شيطان.

223. علماء الجيل قبلكم، وطائفة من علماء الشباب من حولهم، هم الجيش الاحتياطي للدعوة. بل هم خَبيئة جند الله. وقد يكون الجيش الاحتياطي والخبيئة هما الكلمة الحاسمة في المعارك.

224. ينتقل الكلام المُحبَّر في السطور، المعبِّر عن نوايا الصدور، إلى معترك الفعل. ينتقل يوم تُكسَف شمس الفجار ويخسف قمرهم. يوم يصيبهم سيئات ما عملوا. ويومئذ تجد الفقيه الواعظ

الخامل بالأمس سندك وعددك ومددك. يجيء يوم. يجيء أجل. يحل موعد.

225. أنظف الناس فقيه أصاب لمَمًا[1] ساعة من عمْره، لكن إخلاصه لله ، وحبه لرسول الله، وغيرته على دين الله جوهر لا تصيبه لُوثَات[2] العابر من الضروريات. الجوهر هو ما يجمعنا مع إخواننا علماء المسلمين. في الضمير اليوم صوت تعاطف مكبوت، وغدا يبوح الأخ لأخيه بالصفاء والوفاء.

226. بلغني أن قاضيا من أهل العلم بكى ليلة حسرة وندما وألما بعد أن نطق بحكم على أحد الدعاة هتف إليه به هاتف الجبَّارين.

227. من هذَرَ[3] بمعسول الكلام في حضرة الجبارين يوما وساعة من عمره، لا نقيسه بمن باعوا ذمتهم للشيطان، وبمن احتوشوا أموال المسلمين، وحاربوا دين المسلمين. وإنما نَسُلُّ سَخيمة[4] الحاقد، ونَبُلُّ رَحِم الحاقن الحانق[5]. ونطوي لا نروي. نطوي ما كان ونستقبل ما يكون.

228. أختم رسالتي هاته إليكم أيها الأحبة بوصية أوصي بها نفسي: أن اتقوا الله وارجوا اليوم الآخر. واطلبوا العلم الذي يهديكم إلى التقوى ويدلكم على الله وما يوصل إلى الله.

---

(1) صغار الذنوب.

(2) ضعف.

(3) من تكلم بما لا ينبغي.

(4) حقد.

(5) الحاقن : الذي احتبس بوله، والحانق : الحاقد.

229. تطلب العلم -العلم بالله وبشرع الله أولا- من المهد إلى اللحد، وإلا انغلقْت وانتهيْت، وخُتم على عقلك بالعقم. كن عالم مسجد، وواعظ حلقة، وجليس عامة، ومربي ناشئة. لا تكن عالم نخبة متسربلا[1] في كبرياء مكانته. نعوذ بالله من شيطنة الكبرياء.

230. إن الواعظ الحكيم القدوة بالمثال والتواضع الصادق لهو النبراس في الظلام، لا مِسْعَر الحروب الكلامية الجدلية ضد الأنام.

231. إن فقيه القلوب يسقي الناس من زلال محبة الله ومحبة رسول الله لهو الشفاء، لا من تجف لرؤيته وسماعه «هدرته» الحلاقم.

232. وتستعدون إن شاء الله ليكون منكم فقيه الأحكام أيضا، المجتهد غدا، يده في يد العدل والشورى، لإقامة دولة الإسلام.

233. كونوا لله قانتين، من علماء الآخرة الفاعلين في الدنيا، المجاهدين لتكون كلمة الله هي العليا. وفقكم الله. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم. وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

لا تنسوا من دعائكم أخاكم عبد السلام ياسين
سلا، ليلة الأحد 24 رمضان 1417هـ

(1) لبس الكبرياء.